د. زكي جمعة

# المعرفة والبحث العلمي

# المعرفة والبحث العلمي

د. زكي جمعة

# المعرفة والبحث العلمي

دار الفارابي

الكتاب: المعرفة والبحث العلمي

المؤلف: د. زكي جمعة

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ٣١٨١/١١ - الرمزالبريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٦

ISBN: 978-614-432-497-4



إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

# المحتويات

# المقدمة

يتبدل الواقع بتبدل وتطور المعرفة، المواكبة للحياة الإنسانيّة. ليس جديداً وجود علاقة بين الإنسان وما يبحث عنه أو فيه، وما يريد معرفته، إنها علاقة كانت ولا تزال منذ أن كان هذا الإنسان، ومنذ اللحظة التي انطلق فيها باحثاً عن المعرفة بالأشياء التي يراها ويلمسها ويحسها ويتخيلها.

لقد ثبت في كل مراحل التاريخ البشري، أنَّ الإنسان مهتم بالمعرفة، وباحث عنها. وأنّ ذلك يعتبر قيمة إنسانية تميزه من غيره من المخلوقات، وتدحض ما قيل عن الوظيفة الفيزيولوجية للدماغ الإنساني فقط.

لقد كان الدماغ ولا يزال يعمل فيزيولوجياً ويترافق ذلك مع عمل الوعي ولا ينفصل عنه.

يعتبر الموضوع، الطبيعي والإنساني جوهراً بذاته، والذات هي جوهرٌ آخر، لكنهما غير منفصلين كلياً، بل إنهما متصلان عفوياً أحياناً، وقصدياً أحياناً أخرى، إذ لطالما كان الإنسان شريكاً للطبيعة

فـي تبدلها وتغيّرهـا وتطورهـا، ومؤثـراً ومبـدلاً فيهـا، وكذلـك خائفـاً منهـا، ولطالمـا كان للطبيعـة تأثيـر فـي الإنسـان وتطـور حياتـه وتبدّلها وتغيّرهـا، ولطالمـا كان لهـا تأثيـر فـي ثقافتـه ومعرفتـه، إذ إنـه يسـتمدّ منهـا الغـذاء، وفيهـا يعيـش الحيـاة. والإنسـاني يصنـع فـي الطبيعـي، فتكـون العلاقـة بيـن الـذات الإنسـانية والطبيعـة علاقـة تواصليـة، تحمـل قيمـة إنسـانية بالنظـر إلـى الفعـل الإنسـاني.

عندمـا ننظـر إلـى الموضـوع الطبيعـي مـن زاويـة العلـوم الطبيعيـة أو ننظـر إلـى الموضـوع الإنسـاني فـي حقـل العلـوم الإنسـانية، فـإن نظرنـا ذلـك منطلـق مـن وجـود علاقـة بيـن الـذات والموضـوع لـم تنقطـع فـي أي مـن مراحـل التاريـخ الإنسـاني، لكنهـا كانـت ولا تـزال تتبـدل وتتغيّـر وتتطـور. إنهـا تمـر بمراحـل الملاءمـة والتكييـف والاسـتيعاب مـا يسـتدعي توسـيع الأطـر العقليـة والأشـكال المعرفيـة، مـن أجـل فهـم الموضـوع الواقعـي والإحاطـة بـه، وبنـاء أشـكال جديـدة مـن العلاقـة بيـن الـذات والموضـوع.

المعرفـة سلسـلة لا تنقطـع، فهـي نتـاج تبصّـر العقـل وحركتـه. وبمقـدار مـا يتحـرّك العقـل ويشـتغل التفكيـر، تحصـل المعرفـة وتـزداد وتتحصّـن، والواقـع بـدوره لا يسـتعصي علـى البحـث والباحـث، إنمـا يمثّـل بالنسـبة إليـه مسـتودعاً للمعرفـة، ويتداخـل الباحـث والواقـع،

الـذات والموضـوع وفـق علاقـة تبادليـة تكيفيـة تقـدم أوجهـاً جديـدة مـن المعرفـة.

إن هــذا الكتــاب، يحــاول مناقشــة، أهميــة المعرفــة أو التفكيــر العلمــي، ويذهــب إلــى نقــاش مســألة الموضوعيــة وعلاقتهــا بالمعرفــة العلميــة، فــي محاولــة لفهــم كيفيــة اشــتغال البحــث العلمــي فــي العلــوم الإنســانية والاجتماعيــة، اســتناداً إلــى الفكــر العلمــي الحديــث، الــذي انطلــق مــن الضــرورة التــي احتاجــت فــي مواجهتهــا (المواجهــة بيــن الفكــر العلمــي الحديــث والفكــر الدينــي منــذ انطلاقــة الفكــر العلمــي الحديــث، أي منــذ الثــورة الفرنســية) إلــى إبعــاد الوعــي الإنســاني، إلــى إيجــاد انفصــام إنســاني، بيــن إنســان موضــوع للعلــم وإنســان يبحــث فيــه، جعــل الإنســان الأول موضــوع العلــم شــيئاً جامــداً، الإنســان الفــرد والإنســان الجماعــة حتــى يتمكّــن الإنســان الآخــر مــن درســه. الثانــي جعلــه بــلا وعــي، وكان عليــه أن ينطلــق مــن واقــع أنــه يمتلــك دماغــاً فيزيولوجيــاً وظيفيــاً يتحــرك مــن خلالــه فــي البحــث. إنــه ضــرب الإنســاني بالإنســاني، وتحويلــه إلــى أشــياء مخصوصــة، لأنــاس مخصوصيــن، علمــاء منجّميــن، يفرطــون فــي الفــرض والقطــع والحكــم، باســم العلــم الإنســاني الاجتماعــي، الــذي لــم يمتلــك مشــروعيته إلــى الآن.

**زكي جمعة**

# الفصل الأول

# المعرفة والتفكير العلمي

# أ ـ المعرفة، ماهيتها وأنواعها

تـدلُّ كلمـة معرفـة علـى الوعـي الناتـج مـن نظـر العقـل فـي الأشـياء والأشـخاص والأفـكار والنظريـات والمعتقـدات، والأمـور الطبيعيـة، وبذلـك فهـي تعنـي جملـة المفاهيـم والأحـكام والآراء التـي ينتجهـا النـاس فـي دورة حياتهـم واختباراتهـم اليوميـة، منـذ بـدء الحيـاة الإنسـانية، ونشـوء المجتمـع الإنسـاني، وقـد سـاهم فـي ظهـور المعرفـة، التجليـات الاجتماعيـة وتطورهـا فـي سـياق العيـش الفـردي والجمعـي.

وقـد لعبـت هـذه التجليـات دوراً مكثفـاً فـي إنتـاج المعرفـة بأنواعهـا خصوصـاً منهـا الإدراكيـة ومعرفـة الـ«نحـن» والـ«أنتـم»، إضافـة إلـى المعرفـة الثقافيـة والدينيـة والسياسـية والعلميـة المتصلـة بعلـوم الطبيعـة (طـب وكيميـاء، وفلـك، ورياضيـات... الـخ) وعلـوم الإنسـان (أدب، واجتمـاع، وتاريـخ وإعـلام... الـخ). يفيـد ذلـك فـي فهـم ومعرفـة أنَّ المفاهيـم الأساسـية للعلـوم فـي معظمهـا وبعـض الأصـول العلميـة، تشـتقُّ مباشـرة مـن التجربـة الاجتماعيـة التـي عاشـها الإنسـان منـذ البـدء. ففـي نظرتـه إلـى الحيـاة وكيفيـة عيشـها وممارسـته للأخلاقيـات

والمحظورات الخلقية، وفهمه لما هو مقدس ومدنس، أخذت المعرفة لديه تترتب وفقاً لمنظومة إدراكية متغايرة ونامية باستمرار. «إن وجود المجموعات الاجتماعية وتمايزها وتسلسلها، هي التي أوحت للإنسان أفكار الجنس والنوع، وبصورة أعم النظام المنطقي والتنسيقي»[1].

وجاء في القرآن الكريم (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا )[2]. تلك التراتبية التنسيقية أو النظام التنسيقي الاجتماعي، القائم على الانقسام الجنسي، الذي يتوزّع الأدوار الاجتماعية ضمن الأنساق المجتمعية، الشعوب والقبائل، إضافة إلى التعارف الاجتماعي والثقافي والديني والسياسي. تمثل كلّ التجربة الإنسانية منذ البدء، وهي التي أعطت الإنسان القدرة على التعرف والمعرفة من خلال هذه المنظومة القائمة، أوحت له بالتمييز، وعرّفته الانقسام الجنسي والتمييز بين الجنسين، ووظيفة كل منهما في الحياة. أدرك الإنسان وظيفته ودوره، فردياً وجماعياً، وأحس اتجاه الفرد واتجاه جماعته، عشيرته أو شعبه، وأخذت

(١) و. بودون وف. بوريكو - المعجم النقدي لعلم الاجتماع - ترجمة د. سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع مجد، بيروت، الطبعة الثانية ٢٠٠٧ ص ٥٢٩.

(٢) القرآن الكريم، سورة الحجرات، آية ١٣.

بذلـك المعرفـة الإنسـانية تترتـب وفقـاً لمنظومتـه الإدراكيـة الآخـذة فـي النمـو والتطـور.

يتقـرر عـن ذلـك القـول بـأنَّ المعرفـة الناجمـة عـن التجربـة البشـرية، ارتبطـت بشـكل وثيـق بالإحسـاس والإدراك، فكانـت تحـدث ولا تـزال إمـا بالاسـتدلال والاسـتقراء والاختبـار وإمـا بالاسـتنباط.

تنقسم المعرفة إلى قسمين رئيسيين:

الأول المعرفة القبلية، والثاني المعرفية العلمية.

الفكـرة التـي ننطلـق منهـا هنـا فـي قولنـا هـذا، ترتكـز علـى مـا نواجهـه مـن أفعـال وردّات فعـل يقـوم بهـا الإنسـان منـذ اللحظـة الأولـى لولادتـه إلـى لحظـة مماتـه.

تلـك الأفعـال تعبـر بشـكل واضـح عـن امتلاكـه للقبليـات المعرفيـة التـي تمكنـه أولاً مـن التعبيـر عـن دهشـته حيـال مسـائل متعـددة، وثانيـاً تعجبـه حيـال مسـائل أخـرى، فتثيـر الدهشـة والتعجـب لديـه تسـاؤلات شـتى تنقلـه إلـى حقـل البحـث والتنقيـب للوصـول إلـى الإدراك والمعرفـة، وينتقـل تدريجـاً إلـى المعرفـة العلميـة، التـي تأتـي مـن خـلال الاسـتقراء والاسـتدلال والتجربـة والاسـتنتاج وفـق الأصـول والقواعـد العلميـة.

كان الإنسـان ولا يـزال باحثـاً يفتـش عـن معانـي الحيـاة ودلالاتهـا،

يراكم اكتشافاته، ويزيد من معارفه، لتزيد عنده نسبة الحقائق، فينتقل من المعرفة القبلية ومن خلالها إلى عقل الأشياء وفهمها، إلى المعرفة العلمية التراكمية[1].

المعرفة في اللغة، هي التصدّر، مصدر عرفته، أعرفه، وتقال للإدراك المسبوق بالعدم، ولثاني الإدراكين، إذا تخللهما عدم، ولإدراك الجزئي، ولإدراك البسيط، كما في العلم يقال لحصول صورة الشيء عند العقل.

وتقال المعرفة فيما يدرك آثاره، وإن لم تدرك ذاته، والعلم لا يقال إلّا فيما تدرك ذاته.

وتقال المعرفة فيما لا يعرف إلا كونه موجوداً فقط، والعلم أصله أن يقال فيما يعرف وجوده وجنسه وكيفيته. والمعرفة تقال فيما يتوصل إليه، يتفكر ويتدبر، والعلم يقال في ذلك وفي غيره[2].

## أنواع المعرفة

تتميز أنواع المعرفة فيما بينها وفق سمات ومرتكزات هي:

---

(١) راجع كتابنا: جمعة، زكي، مركبات التفكير ومناهج البحث العلمي، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١٥م.

(٢) راجع: معجم الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي. تحقيق د. عدنان درويش ومحمّد المصري، منشورات ذوي القربى، إيران قم ١٠٩٤هـ.

١ ـ المعرفـة الإدراكيـة: وهـي تحصـل للعالـم الخارجـي، بوصفها واقعة اجتماعية تفترض أولاً الإدراك الجماعي للميادين وللأزمنة حيث يقع العالم. إن الفعل الاجتماعي الناتج من الجماعات، هو في أصله فعل أفراد، يحصل في أزمنة وأمكنة، مليئة بالعقبات والتعارضات والمسارات، المحتاجة إلى كفاح فردي وجماعي للسيطرة عليها، وتجاوزها أو التحكم فيها... الخ.

فيتبع ذلك فعل الوعي والإدراك، وبالتالي فإن العمليات الإدراكية سواء منها الفردية أو الجماعية تضبطها في مجملها عوامل جماعية توحي بها.

إذا ذهبنا إلى القول، أنَّ فرداً ما، لديه إدراك فردي، مخصوص، بعيد أو منعزل عن الجماعة وعالمها، في ميادين وأزمنة، يمكن أن يكون عاجزاً عن اكتشاف نفسه، وسوف يكون عند حدود الجنون أو أقلّه القلق النفسي الذي يمكن أن يؤدي إلى المرض، فإن ذلك يتيح لنا القول، بأنَّ الوعي والإدراك في حقل الجماعة والتشارك معها في صوغ هذا الوعي، يفيد في فهم ووعي الذات الفردية والجماعية، التي تعيش في الأزمنة والأمكنة الاجتماعية.

٢ ـ معرفة الغير: الـ«نحن» والـ«أنتم»: لا يمكن تخيّل أي إطار اجتماعي، أو دورة حياة مجتمعية، لا يحدث فيها هذا النوع من المعرفة، فهي في الأصل، منشأ الواقع المجتمعي عينه، لكنها

غالباً ما تكون مضمرة أكثر منها معلنة وصريحة، وفي الوقت عينه فهي تتميز بالكثافة المتبادلة. وتمتلك أهمية ومزايا تفيد في تحديد السلوكات والكلمات والمواقف والرغبات والاتصال والانقطاع والتفريق والجمع في كل الأطر الاجتماعية.

٣ ـ معرفة الحس السليم: وهي مرتبطة بدورة الحياة اليومية، وتتأصل وتتجذر في معرفة الـ«نحن» والـ«أنتم»، والعالم الخارجي الذي تدور فيه العلاقات والتعارف والاتصال والاندماج، بوساطة الحواس الإنسانية الفردية والجماعية. وهي معرفة تنمو وترتقي مع الأجيال، وتنزع إلى التعلّق بالعادات والتقاليد، التي عاشتها الأجيال السابقة، وتمارسها الحاضرة. إن الذين سبق لهم أن عاشوا في مجتمعاتهم، وخلفهم آخرون، تواصلوا معهم ونقلوا إليهم معارفهم، وعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم وثقافتهم، ودعوهم إلى الحس السليم، من خلال معرفة وفهم وممارسة الثقافة والعادات والتقاليد والأعراف.

٤ ـ المعرفة التقنية: هي معرفة لها ميزتها المرتبطة بالنزعة إلى السيطرة.

ربما أمكن القول إن أنواع المعرفة السابقة تحمل أيضاً نزعة للسيطرة، في ناحية ما، ولكن ميزة المعرفة التقنية أنها تنزع إلى

السيطرة بقوة التقنية، على العالم واستغلاله؛ ومن يمتلك التقنية الأفعل والأقوى والأمضى إلى جانب الثروة يسيطر.

سعت المجتمعات البشرية منذ القدم إلى إنتاج تقنياتها التي تستطيع بوساطتها إخضاع ما حولها، والتحكّم فيها، ثمّ قهر الغير من الشعوب والأمم، فكانت تتسابق في إنتاجها وتتنافس، حتى أصبح العالم اليوم. تقنياً بامتياز تتحكم فيه التقنيات بحياة الأفراد والمجتمعات، ولم تعد السيطرة مقتصرة على الاحتلال العسكري، أو على الثروات، أو على الأسواق، بل من خلال الوسائط التي حُملت للناس وأخذت تشدهم وتتحكم في دورة حياتهم وعلاقاتهم وميولهم ورغباتهم...الخ.

٥ ـ المعرفة السياسية: هنا ينبغي التنبه إلى أنَّ هذه المعرفة ناجمة عن وعي للعقل الاجتماعي، فطرياً وعملياً، منبثق من صراع ومواجهة اجتماعية متعددة الرهانات. وبهذا فهي معرفة منحازة تماماً، يكون فيها رجال السياسة أقوى من أي أشخاص غيرهم سواء رجال العلم أو رجال الثقافة، أو رجال الدين...الخ.

يمكن رصد المعرفة السياسية بوجه خاص في الأفعال، النزاعات، والصراعات، حيث تقترن المعرفة السياسية لنجاح الممارسين لها بالمعرفة الضرورية لتخطّي العقبات، ولاكتناص الفرص المناسبة، وبالتالي فإن المعرفة السياسية تشكّل صورة

لاندماج وتعاون وانصهار عدة أنواع من المعارف الإدراكية، الـ«نحن» والـ«أنتم»، الحس السليم، والمعرفة التقنية.

٦ ـ المعرفة العلمية: تنطلق هذه المعرفة من أطر علمية هي في جوهرها حصيلة نتائج سابقة، تزعم أنها فوق الالتباس والتشكيك والنقد والنقض، لكنها في حقيقتها تمتلك أو تتمتع باستقلال نسبي، وتحتمل الخطأ مثلما تحتمل الصواب.

إن النقاش في هذه النقطة لا نستطيع أن نوجزه هنا إلا بطريقة غير متقنة نسبياً؛ ففي كل معرفة تتدخل النزعات والآراء والأفكار والمعاملات الاجتماعية، تدخلاً قوياً، قدر ما تكون المعرفة متطورة وقادرة. فهي معرفة تتقدم أساساً بوساطة منطقٍ داخلي متأثر بتلك النزعات والمعاملات. سواء كنا نتحدث عن المعرفة العلمية في إطار العلوم الطبيعية أو نتحدث عنها في إطار العلوم الإنسانية والاجتماعية.

إنَّ التجربة والاختبار اللذين يمارسان في العلوم الطبيعية، هما في جوهرهما عملان إنسانيان، شيمتان إنسانيتان، وبالتالي فهما يعانيان تأثير الإنسان بكل ما يحمل فيهما.

كذلك، فإن أي علم وعمل علمي يحتاج إلى إطار مرجعي، مثلما يحتاج إلى التجربة والاختبار. هذان ثنائيان متلازمان في العلم، وهذا ما يدفعنا إلى القول بأنَّ المرجعية الاجتماعية، بكلّ

مضامينها، تدخل في المعرفة العلمية وتؤثر فيها، ثمّ إن ما ينتج من الاختبارات والتجارب، يحتاج إلى تعميم وتعليم وتعلم، مثلما احتاجت إلى بيئة لإنتاجها، وكلّ ذلك يحدث في دائرة المجتمع وليس خارجه.

٧ ـ المعرفة الفلسفية: تتميز هذه المعرفة بكونها فردية تتبلور في مذاهب حاسمة، وهذا تعبير عن أزمتها. في العصور السابقة كانت المعرفة الفلسفية تهيمن على كلّ معرفة أخرى، وحديثاً رغم انفصال العلوم عن الفلسفة، وظهورها بمظاهر مستقلة، لا تزال المعرفة الفلسفية تهيمن، إذ لا يمكن لأي علم من العلوم الاستغناء عنها، أو عما يعرف بعلم «الأصول».

# ب - التفكير العلمي وأسسه

منذ لحظاته الأولى، يبدأ الإنسان بالبحث والتفكير ومحاولات التحكّم، في استخدام حواسه وعقله، وتلك ماهية لا يمكن تجاوزها؛ معها يبدأ الفحص والنظر والتفكير.

يمثّل جسد الإنسان (الفرد، الجماعة)، وعاء عقله، وعقله هو معنى عمله ومعرفته، فالعلم متلازم مع العقل، كأنهما أصل وفرع، وكلما أتيح للعقل أن ينشغل، توسعت المدارك، وازداد العلم. معنى ذلك أنَّ امتلاك العقل من قبل الإنسان إفادة في القدرة على التفكير والفهم. المسألة هنا تتعلق بكيفية استخدام العقل في تطوير التفكير، والتعلم وإنتاج العلم. ذلك يعني استخدامه برؤية وبصيرة، لدى العامة والخاصة من الناس.

ما يميز الخاصة من العلماء في الميادين كافة، أنهم يشتغلون استناداً إلى نهج علمي يعلّمونه أو يتعلمونه، فيما الخاصة يستخدمون المنهج العلمي والمنطق ببداهة، دون إدراك منهم لذلك.

المهـم فـي هـذه النقطـة أنَّ هنـاك تفكيـراً، وطرائـق بحـث وتعلُّـم وفهـم، إمـا بداهـة وإمـا عـن طريـق العلـم أو بوسـاطة العلـم، أو أنّهـا علميـة.

ينبنـي التفكيـر العلمـي علـى اعتبـار أنَّ العلـم حالـة وجدانيـة أو نفسـية، فـي العقـل الحـيّ، والجسـد الحـيّ، منهـا تنطلـق خطـوات العلم، من عقـل الحـي الممتلـك اتجاهـات متعـدّدة ومتنوعـة ومتكاثـرة، وتنطلـق مـن عقـول متعـددة باتجاهـات متنوعـة. هنـا تنبّـه، يفيـد إلـى أنَّ الوصـول إلـى التفكيـر العلمـي غيـر ممكـن دون الالتفـات إلـى المؤثّـرات النفسـية التـي تنتـج مـن التجربـة الحياتيـة، وتؤثّـر فـي منطـق التفكيـر وعلميتـه. إذ لطالمـا كان الإنسـان يميـل إلـى تصديـق مـا يرغـب أن يكـون صحيحـاً، بمـا يؤاتـي مصالحـه وقناعاتـه، ويرفـض مـا يمكـن أن يخالـف تلـك المصالـح والقناعـات، ثـم إنّ الأفـكار التـي يتحمّلهـا، ومصادرهـا الحياتيـة، ومـا راكمـه مـن تجربـة وخبـرة، تتـرك آثارهـا علـى أفكاره، هنـا دلالة أساسـية ومهمـة. إنّ كل التجربة التـي يعيشـها الإنسـان (الفـرد، الجماعـة) تعكـس نفسـها علـى عمليـات التفكيـر، فـلا تعـود المسـألة هنـا متفـرّدة أو مسـتقلة. إن عمليـات التفكيـر العلمـي مثلمـا التفكيـر العـادي لا ينفـكّ ملازمـاً للتجربـة الحياتيـة، ومنبثقـاً منهـا. هـذا مـا يدعـو إلـى أهميـة كيـف يمكـن لنـا فـي البحـث العلمـي أن نأخـذ فـي الاعتبـار مـا سـبق مـن تجـارب وأفـكار ونسـتند إليهـا بـدلاً مـن

التخلـي عنهـا. ذلـك ليـس ربطـاً بتاريـخ البحـث والعلـم والتفكيـر، بل سـبيلاً فعـالاً إلـى تطـور البحـث والتفكيـر. إنّ المعرفـة والتفكيـر ليسـا سلسـلة متناسـقة دومـاً، إنمـا مسـيرة نحـو الحقيقـة، وهـي أفـق دائـم الاتسـاع للبدائـل والمتممـات.

يثيـر هـذا الـكلام جملـة أسـئلة حـول القطـع المنهجـي فـي البحـث العلمـي والنظريـة.

قبـل الإجابـة عـن تلـك الأسـئلة، أو عرضهـا والإجابـة عنهـا، نسـتمر فـي الحديـث عـن التفكيـر العلمـي، إذ تقـوم أسسـه علـى مجموعـة مـن النقـاط:

١ ـ الملاحظـة الحسـية: فهـي تعتبـر أساسـاً فـي المعرفـة والإدراك، تثير الفحـص والبحـث والتدقيـق، هـي فـي الأسـاس بداهـة، يقـوم بهـا الإنسـان فـي كل وقـت، تبـدأ مـن لحظـة ولادتـه، وهـي فـي المسـار العلمـي، أسـاس للمعرفـة، لتنطلـق بعدهـا فـي الخطـوات العلميـة اللاحقـة، للوصـول إلـى النتائـج. إنّ تقريرنـا القيـام بالبحـث حـول كـذا وكـذا وتحديدنـا لموضـوع بحثنـا، ناجـم عمَّـا لفتنـا مـن خـلال ملاحظتنـا الحسـية الأوليـة. إنهـا نقطـة البـدء بالبحـث وأساسـه.

٢ ـ الموضوعيـة: ويعنـي ذلـك النظـر إلـى الأمـور، والوقائـع والأشـياء والكلمـات، انطلاقـاً مـن موضوعهـا، بـلا انحيـاز أو تعصـب أو تكيّـف، إنـه نظـر إلـى الموضـوع بمـا هـو، أو بمـا نـراه ونفهمـه منـه،

دون الالتفاف إلى ما يمكن أن يكون مخالفاً أو موافقاً لأفكارنا ومشاعرنا ومصالحنا، وتلك مسألة نسبية غير إطلاقية.

إنَّ ما يمكن أن يشكل هفوة كبيرة في عمليات التفكير والبحث العلمي، هي تلك الآراء والمواقف المسبقة لدينا، والتي تشكل قوالب فكرية ولفظية، تبعد الباحث عن الموضوعية، وتأخذه باتجاه متصلّب في عمله.

تمثل الموضوعية في التفكير والبحث، رغبة في الحياد، وهو حياد نسبي، لا يمكنه أن يبعد الرغبات والمواقف المسبقة لدى الباحث بشكل كامل، ولكن يمكنه أن يحدَّ من تأثيرهما.

إنَّ ادّعاء الموضوعية، وباسمها يجري الإدماج بين الموضوع والذات، ويعمد المدعي إلى إسقاط ذاتيته على الموضوع، وإلحاق ذاته به، مضفياً الشرعية العلمية على عمله، باسم الموضوعية المدَّعاة. إن هذه الخدعة تطال إرادة الحقيقة العلمية نفسها، بما هي ادّعاء حصري بامتلاك الحقيقة، ثم إنَّ الاتجاه نحو الموضوعية، بما يعنيه من مفارقة للرغبات والمواقف والآراء الخاصة ومرجعياتها، يضعنا أمام قسمة بين ما هو علم وما هو خارج العلم، بتعبير ميشال فوكو[1]، وهذا يعني إضعاف قوة البحث العلمي وإضعاف قوة العلم

(١) ميشال فوكو، فيلسوف فرنسي (١٩٢٦-١٩٢٤) تأثر بالبنيويون ودرس وحلّل تاريخ الجنون في كتاب «تاريخ الجنون» وعالج مواضيع مثل =

وإضعاف الوجود الإنساني، إذ لا بحث علمياً خارج حقل الوجود الإنساني، وحقل هذا الوجود هو خارج العلم، فلا علم بلا خارجه أو خارج حقله، وبذلك فإن القسمة تلك تعني نزوعاً نحو التسلط على حقل العلم والبحث العلمي من خلال رؤية الموضوعية أو ادعائها.

ربما يكون في هذا الكلام بعض إجابة عن تساؤلات يمكن أن تثار في مسألة القطع المنهجي. لكن ذلك لا يعني أنَّ ما قلناه هو ضد الموضوعية.

إنَّ ممارسة العلم ترتبط بحقيقة الوجود الإنساني، وكل كلام غير ذلك هو مجافٍ للحقيقة، وإن ممارسة العلم انطلاقاً من رؤية تنتج أساساً من مقاربة الواقع، وملامسته؛ إنّها خلاصة من خلاصات التجربة الاجتماعية التي تُعاش، وهي ترتبط بأسس الفهم، فهي نتاج عمليات ذهنية تمارس فهم الواقع، وهذا الفهم لا يمكن أن يحدث إلا باستخدام الحواس المستند إلى لغة.

٣ ـ الإلمام بأسس المنطق والمنهج العلمي والقدرة على الاستنتاج والاستقراء، وكذلك على التمييز بين المغالطات الناتجة

---

= الإجرام والعقوبات والممارسات الاجتماعية داخل السجون، وضع مصطلح «أركيولوجيا المعرفة».

من عمليات التضليل المتعددة. فللباحث أن يعمد إلى استبعاد المعلومات التي تكون غير صحيحة، أو غير موثوق بها وفق تقديره (أين الموضوعية هنا؟) ويمكن لها أن تؤثر في عمليات البحث تأثيراً سلبياً، يؤدّي في معظم الأحيان إلى الوقوع في الخطأ. (إنها مسألة الاستنسابية).

٤ ـ أخذ المعطيات والنتائج العلمية السابقة بالحسبان، وهذا يفيد بأنَّ عملية استبعاد المعلومات الخاطئة، لا تعني استبعاد ما توصل إليه العلماء من قبل، إن ما توصّل إليه هؤلاء يمثّل تراكماً علمياً يستفاد منه ويُبنى عليه.

٥ ـ يمكن الإفادة من تحويل الكيف إلى كم، في كثير من الأحيان، وتحليل هذا الكم وتأويله؛ فالعلم في معظم عمله يعبر عن الظواهر بلغة الأرقام. إلّا أنّ العلوم تختلف فيما بينها، من حيث قابليتها للتحول إلى أرقام، فالفلسفة وعلم النفس مثلاً، غير الفيزياء والرياضيات، التي تقوم أساساً وقديماً على الرقم، بينما أخذت الفلسفة وأخواتها حديثاً باستخدامه.

٦ ـ التعميم: يذهب البعض إلى تعميم النتائج التي توصلوا إليها باعتبارها نتائج حاسمة وشاملة، سواء في علوم الطبيعة أو في العلوم الإنسانية، وهذا خطأ فادح، إذ إن النتائج ليست حقائق

جوهرية، ولا هي مطلقة، وإنما تتمتع بالنسبية، وهي وجه من أوجه الحقيقة ويمكن لعالم مجدِّد أن يكشف في بحث له عن وجه آخر من أوجه الحقيقة.

وهكذا، فإن الظواهر التي نبحث عنها في العلوم الطبيعية وفي العلوم الإنسانية والاجتماعية، ينتجها الإنسان. إن سمة البشر والمجتمعات البشرية أنهم في حراك مستمر، وبالتالي ينتجون ظواهر متلاحقة، ويعدلون في ظواهر قائمة ويزيدون عليها، يُعمِلُ ذلك في تبديل وتطوير وتغيير المجتمعات، وفي تقدّمها، لذا فإن ما يمكن التوصل إليه من نتائج تبقى نسبية ومتواترة.

# ج - المعرفة العلمية ودور النظرية فيها

المعرفـة هــي فاعليـة بشـرية، وبنـاء منهجـي، تحـدث مـن خـلال حـوار بيـن الـذات والموضـوع، فـي حدوثهـا تغنـي الـذات، وبهـذا فـإن المعرفـة ليسـت شـيئاً ناجـزاً، بـل هـي نتيجـة جهـد عقلـي تفكـري حـواري وفـق آليـات الاسـتقراء والاسـتدلال والتجريـب والبرهنـة.

فالمعرفــة الإنســانية مــن حيــث هــي كذلــك، معرفــة ممكنــة، ومتكاملـة، وليسـت مسـتحيلة، فهـي تحمـل فـي طياتهـا القـدرات الإنسـانية التـي مكّنتهـا منهـا، مثـل الربـط والتحليـل والكشـف والتأويـل والتفكيـك والتنسـيق... الـخ.

بشـكل عـام تبـدأ المعرفـة مـن سـؤال مـن نـوع مـاذا؟ أو لمـاذا؟ كأن نسـأل لمـاذا حـدث كـذا ولا يحـدث كـذا؟

تذهــب الاتجاهــات والمــدارس المعرفيــة إلــى القــول بــأنَّ الإنســان يســلك فــي ســبيل الحصــول علــى المعرفــة، إمــا ســبيل الاســتقراء وإمــا ســبيل الاســتنباط؛ فعلــوم الرياضيــات والمنطــق فــي طبيعتهــا وطبيعــة موضوعهــا تمثّــل المعرفــة الاســتنباطية. إذ ينطلــق الإنســان

أو العقـل الإنسـاني مـن تعريفـات يكـون قـد توصـل إليهـا عـن طريـق الحـدس والمنطـق فيمـا العلـوم الطبيعيـة والفيزيـاء والعلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة هـي فـي طبيعتهـا وموضوعهـا تمثـل المعرفـة الاسـتقرائية. إذ ينطلـق العقـل مـن تعريفـات يكـون قـد وصـل إليهـا عـن طريـق التكـرار المنتظـم والمتابعـة فـي الوقائـع والأحـداث الطبيعيـة والإنسـانية، وبذلـك فـإن علـوم الطبيعـة والإنسـان لا تتضمـن سـوى الاسـتقراء والمعرفـة الاسـتقرائية وهـي تشـتغل وفـق المنهـج الاسـتقرائي، فيمـا علـوم الرياضيـات والمنطـق تشـتغل وفـق المنهـج الاسـتنباطي ولا يوجـد غيرهمـا.

إذا كان الأمر على هذه الحال فمن أين يأتي تعدّد المناهج؟

هـذه المعضلـة علميـة ولّدهـا امتـلاك البشـر لنمطيـن مـن المعرفـة، التـي تولـد منهـا تعـدّد وجهـات النظـر والمعرفـة الفكريـة، مـا يضعنـا أمـام سـؤال: أي مـن السـبيلين يصـح اعتمـاده؟ أو أيّ منهمـا الأصـح؟.

يمكـن أن نتوقـف هنـا عنـد مقولـة أنَّ كل معرفـة هـي خاطئـة أمـام الأخـرى، وتقـع خـارج المعرفـة المطلوبـة. علـى هـذا الأسـاس تكـون المعضلـة العلميـة مسـتحيلة الحـل، وهـي تعبِّـر عـن نفسـها فـي محـاولات منهجيـة مسـتمرة تأخـذ علـى عاتقهـا مهمـة نقـد المعرفـة الاسـتقرائية والدعـوة إلـى المعرفـة الاسـتنباطية فـي العلـوم الطبيعيـة والعلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، مـع أنَّ هـذه العلـوم فـي طبيعتهـا

وموضوعها هي استقرائية، فهل تنجح المحاولة في تقديم البديل للمنهج الاستقرائي؟

حتى الآن، يمكن أن نقول، لا يمكن ذلك، لأنَّ ما ينتج من نقد المعرفة الاستقرائية لا يعد أكثر من انتقال إلى المعرفة الاستقرائية نفسها، التي تتطوّر وتتنوّع وتتعدّد وتصبح أكثر مناعة من خلال ما توجهه بدورها إلى المعرفة الاستنباطية. بمعنى آخر، ما يُقال عنه في العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية إنه منهج استنباطي، لا يمثّل في الواقع أكثر من نقد للمنهج الاستقرائي بوساطة الاستنباط، الذي يتّخذ أشكالاً متعددة مثل المنهج التجريبي والمنهج العقلاني والمنهج الوظيفي والمنهج الكمي والمنهج الكيفي... الخ.

السؤال هنا، هل أنَّ نقد المنهج الاستقرائي هو الذي ينتج تعدد المناهج في العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية؟ وأنَّ النقد هو خارج المنهج المستهدف، أم داخله؟ هل أمكن إلغاء الاستقراء؟ أم أنه بقي واستمر؟ ولماذا استمر؟ أو ما جدوى النقد في هذه الحال؟

تسللت فكرة تعدّد المناهج من أبواب مختلفة، إلى حقول المعرفة، حتى بات يقال إن لكلّ علم منهجه، بل مناهجه ومنهجياته الخاصة والمتناسبة وطبيعة البحث، وهناك من يقول إنّ لكلّ ميدان

من ميادين العلم عينه منهجاً خاصاً أو عدة مناهج خاصة ومنهجيات متناسبة. وغالباً ما يجري إعداد الطلاب إعداداً شاقاً تحت اسم التأهيل المنهجي، وأصبحت المعرفة المنهجية تحتل مكانة أرفع وأقصى من المعرفة نفسها، وباتت كلّ معرفة مرفوضة في المنهج العلمي المعاصر، ما لم تكن قد وجدت من خلال الضوابط المنهجية التي يضعها، وهنا ضرب من ضروب إلغاء الذات وحركة الفكر لدى الباحث في البحث العلمي، ويقال بهذا يصبح الباحث محايداً، تلك فكرة، جرى العمل عليها في مجال العلوم الطبيعية والطبية، من خلال تشكيل فرق بحثية، تعمل بشكل جماعي، ما يستبعد ذاتية العالم أو الباحث.

كذلك فقد تسللت هذه المسألة إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية بما فيها الآداب والفلسفة والإعلام والتوثيق... الخ. سنتحدث أكثر حول تعدد المناهج لاحقاً في الفصل الخاص بذلك.

ثم أصبحت المعرفة الكمية هي المعرفة المثلى، واحتلت مكانة مقدسة علمياً وعملياً؛ وأصبحنا أمام سيادة الرقم؟ حتى باتت العلوم وميادينها مستعدة للتخلي عن المستوى الوصفي للظواهر والوقائع، تمثل وسائل المشاهدة ووسائط التواصل الاجتماعي نموذجاً لانتفاء الفواصل، واكتشاف ظواهر جديدة ذات صيغة

كميـة. وذلـك بشـكل تقنـي أخـذ يتطـور تدريجـاً. السـؤال هنـا، مـا الـذي يمثلـه الرقـم؟ ونحـن نعلـم أنَّ كل رقـم مجـرد لا يمكـن أن يمثّـل شـيئاً مـا لـم يكـن هويـة أي مصحوبـاً بـكلام أو أفـكار أو تحليـل... الـخ. وبهـذا نكـون أمـام معرفـة مـن نـوع آخـر أو معـارف أخـرى، إذ لا يمكـن إنتـاج المعرفـة مـن زاويـة أو وجهـة واحـدة.

بهـذه المعرفـة أعلـن الإنسـان سـيادته علـى العالـم، وبهـا أخـذ يتسـلطن علـى سـائر الموجـودات، فقـد عمـد إلـى اسـتخدام قدراتـه العقليـة ومـا يمتلـك مـن إمكانـات حسـية ونفسـية للملاحظـة والاسـتقراء والقيـاس، مـن أجـل فهـم كثيـر مـن الظواهـر ومعرفـة كيفيـة السـيطرة عليهـا وتسـخيرها.

هنـا نكـون أمـام العقـل مـرة أخـرى، إذ إن اسـتبعاده لـم يكـن ممكنـاً؛ فـكل العمليـات العلميـة والمعرفيـة لا يمكـن لهـا أن تكـون فـي حـال غيـاب العقـل أو تغييبـه. هـذه مسـألة حيويـة فـي مجـال المعرفـة والعلـم.

يلعـب العقـل الـدور الأسـاس فـي التوجّـه نحـو إنتـاج المعرفـة والانطـلاق البحثـي، ولا يمكـن تخطّـي ذلـك؛ فـكل معرفـة لا بـدّ وأن ترتكـز علـى نظـر وتجربـة، نبـدأ بالسـؤال أو التسـاؤل، ثـم ننتقـل إلـى بلـورة وجهـة نظـر ونخـوض تجربـة البحـث، تلـك حـوارات بيـن

الـذات وذاتهـا وبيـن الـذات والموضـوع. وبذلـك فـإن للنظريـة دوراً فـي المعرفـة وإنتاجهـا.

ما النظرية؟ وما التجربة؟

١ ـ النظريـة: هـي الأفـكار التـي تتبلـور فـي إطـار مفاهيمـي فـي العقـل، مـا بعـد فعـل النظـر والمشـاهدة، إنهـا إطـار مـا بعـد النظـر، الـذي يحمـل تفسـيراتٍ وأفـكاراً تحتمـل خطـر الترشـيد المفـرط للباحـث، وتدفعـه إلـى الابتعـاد عـن الواقـع أحيانـاً، وهـذا مـا يفسـر بالقـول، إن هنـاك تعارضـاً بيـن النظريـة والممارسـة.

كذلـك لا تكـون النظريـة تفسـيرية دائمـاً، وإنمـا يمكـن أن يكـون لهـا منحـى تأويلـي، بمعنـى أنهـا تنتقـل مـن مرحلـة الفهـم إلـى مرحلـة ممارسـة عمليـات الفهـم، كشـكل مـن أشـكال الصعـود.

يرتـدي مفهـوم النظريـة فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة معـانٍ متعـددة وربمـا أكثـر تنوعـاً منهـا فـي العلـوم الطبيعيـة؛ ففـي الوقـت الـذي اتجهـت العلـوم الطبيعيـة نوعـاً مـا إلـى الاسـتغناء عـن النظـر والمشـاهدة المباشـرة ولجـأت إلـى الرياضيـات فـي اصطنـاع مشـاهدات جديـدة، ولـم يعـد العلـم الرياضـي مجـرد أداة تفسـير كمّـي فقـط، بـل أصبـح أداة صـوغ لمشـاهدات اختباريـة جديـدة، يقيمهـا العالـم أو الباحـث فـي المختبـر أو العمـل فـي شـروط رياضيـة مسـيطر عليهـا، بقيـت

العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة تعتمـد بشـكل أساسـي علـى المشـاهدة المباشـرة للوقائـع الإنسـانية[1].

غالباً مـا يميـل العلمـاء فـي علـوم الإنسـان والاجتمـاع إلـى اسـتعمال النظريـة كمـرادف لكلمـات مثـل المنهجيـة، والأفـكار الموجهـة، وتحليـل المفاهيـم، والتفسـيرات اللاحقـة، والتعميمـات التجريبيـة، والاشـتقاق، والتقنيـن، والنظريـة (بالمعنـى الضيـق للكلمـة).

إن اسـتعمالاً للمفهـوم (بالمعنـى الضيـق للكلمـة) أي لمجموعـة مـن المقترحـات التـي تشـكّل نظامـاً، لا يعفـي مفهـوم النظريـة مـن امتلاكـه مجموعـة مـن المقترحـات أو الأحـكام مـا بعـد النظريـة المتعلقـة باللغـة الواجـب اسـتعمالها لمعالجـة الحقائـق الاجتماعيـة. أي إنهـا ليسـت مقترحـات حـول الحقيقـة الاجتماعيـة، وإنمـا حـول النظريـات الخاصـة بالحقيقـة الاجتماعيـة.

ثمـة كلام حـول مفهـوم النظريـة المسـتخدم فـي العلـوم الاجتماعيـة (بالمعنـى الواسـع للكلمـة)، باعتبارهـا مجموعـة مـن النمـاذج الإدراكيـة، التـي يمكننـا تسـميتها بالنمـاذج التصنيفيـة، بمـا أنهـا تسـتند غالبـاً إلـى تصنيـف، مثـل التعـارض بيـن الجماعـة والمجتمـع،

(١) منيمنة، د. جميل، المنهج المعاصر، مجلة الفكر العربي، العدد ٥٥، السنة العاشرة، كانون الثاني وشباط ١٩٨٩، معهد الإنماء العربي، بيروت، ص ٩٨.

وهناك نماذج تصنيف تحت عنوان النماذج القياسية. في هذه الحال يوحي «المنظر» أنَّ مجموعة من الظواهر الاجتماعية المحصورة إلى حد ما ولكنها عديدة، يمكن أن تعتبر وكأنها خاضعة لأواليات مشابهة لتلك التي تميّز إما أنواعاً أخرى من الظواهر الاجتماعية وإما ظواهر ترتبط بغير علم الاجتماع.

وهناك مجموعة ثالثة يمكن تصنيفها تحت عنوان النماذج الشكلية، وبخلاف النوعين السابقين، تتضمن النماذج الشكلية مؤشرات نحوية أكثر مما هي دلالية، على الطريقة التي تبنى بها نظريات علم الاجتماع (بالمعنى الضيق للكلمة)، أو أن تقاد بها التحليلات المتعلقة بهذا النوع أو ذاك من الظواهر الاجتماعية. في أغلب الأحيان، ثمة ممارسات في البحث نجد أساسها في نماذج شكلية ضمنية. وهكذا فإن جزءاً مهماً من علم الاجتماع التجريبي يكون غرضه إقامة النفوذ النسبي لمجموعة من المتغيرات التفسيرية (موصوفة بأنها مستقلة) على مجموعة من المتغيرات المطلوب تفسيرها (موصوفة بأنها تابعة)، وأن يلجأ الباحث إلى تحليل متعدد التنوع، وإلى تحليل للتراجع ذي المعادلات المضاعفة، وإلى تحليل الصلات أو أية أداة إحصائية أخرى، فإنه يستعمل بذلك نموذجاً شكلياً ضمنياً.

مثلما في العلوم الطبيعية تظهر النظرية في العلوم الاجتماعية

كأنها وهبت حيوية كبرى أو جموداً كبيراً حسب وجهة النظر التي تنتمي إليها أو تتبناها وباعتبارها تشكل الإطار الثقافي للطلاب والباحثين الثانويين.

إن السبب الرئيسي لهذا الجمود يتمثل في أمور ثلاثة:

أولاً: من الممكن بصورة دائمة تقريباً ترميم نظرية مبنية في إطار نموذج بطريقة تسمح لها بتفهم الملاحظات التي تبدو للوهلة الأولى متلائمة بصعوبة معها.

ثانياً: ينبغي لكي يجري التخلّي عن نموذج أن يتوافر نموذج أكثر إقناعاً أو إفادة، وإلّا يجد الباحث نفسه في وضع مرتبك: إن عدم وجود نموذج يرشده، يفقد نشاطه وجهته، ويصبح من المستحيل التقرير بشأن الملاحظات التي يقتضي الشروع فيها.

ثالثاً: إن التخلّي عن نموذج معين يكون بصورة عامة مكلفاً اجتماعياً بالنسبة إلى الباحث، لذلك تعتبر النماذج نوعاً من الحراس ذي الوجهين، ولكونها لا غنى عنها للبحث، يميل الباحثون إلى إعطائها فعالية وشمولاً مغالى فيهما. لذلك يمكنها في كثير من الأحيان أن تلعب دوراً خطيراً مثلما قلنا بداية، وهو الإفراط في التوجيه والترشيد للباحث، كما أنها يمكن أن تلعب دوراً كابحاً.

إن مفهوم النظرية مثلما هو مستعمل في علم الاجتماع يتضمّن

حقائق من الأفضل تسميتها نماذج من جهة أولى، ونظريات بالمعنى الضيق للكلمة من جهة أخرى[1].

هذه النقاط التي عرضناها تشكل عناصر أولية للمنهج العلمي الموضوعي الحديث، فما مدى ملاءمتها مع الأبحاث الاجتماعية؟

لماذا نطرح هذا السؤال؟

أولاً: لأننا نفضل النظر بداية إلى هذه النقاط في لحاظ نتائجها وليس في لحاظ منطلقاتها، لأنَّ مثل هذه النظرة، تؤمن لنا فهم حقيقة هذه النقاط، من حيث دقائقها العملية قبل الغوص في أصولها الفلسفية العامة، الذي يحيلنا إلى تاريخ النظريات الفلسفية.

ثانياً: لأنَّ هذه النقاط تندفع من حيث ديناميتها الذاتية إلى اقتحام ميادين مختلفة، إذ ما ينطبق في مدار العلوم البحتة لا بُدّ من أن ينطبق على وقائع العلوم الإنسانية والاجتماعية.

إنّ سؤالاً في الأساس نطرحه إلى أي حد تختلف النظريات في العلوم الاجتماعية والإنسانية عن النظريات المقترحة من قبل علوم الطبيعة! إلى أي حد تكون قابلة للتحقق؟ إن مسألة التطابق لا بدّ منها وإلا اختل مبدأ العلة الكافية الذي ينطلق منه النظام المعرفي الحديث، أو تستند إليه نظرية المعرفة الموضوعية.

---

(١) راجع: ر. بودون، وف. بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة د. سليم حداد. م. س. ص ٥٧٦ و٥٧٧ و٥٧٨.

ذلك أنَّ هذه العلة لا بدّ من أن تعطي، وبالتالي على العقل الحديث أن يحسب كل شيء، وبهذا المعنى، من الضروري للإنسان الذي يحسب وقائع الطبيعة من أن يحسب علاقاته ووضعيات حياته الاجتماعية، المسألة هنا ليست شكلية، إننا أمام مدارين:

الأول: مدار الطبيعة.

الثاني: مدار الوجود الإنساني.

الطبيعة مقابل المجتمع – الفرد.

(الوجود الإنساني) – (الوجود المقابل).

فإما أن تعمم السببية وتنفذ من مدار الطبيعة إلى مدار الوجود الإنساني، وإما يكون مبدأ العلة الكافية ناقصاً، وهو لا يستطيع أن يكون ناقصاً، لأنه من حيث ذاته، ضروري وشامل.

ما نريد التركيز عليه هنا، أو الإشارة إليه أكثر، هو أنَّ الفكر الاجتماعي الحديث ليس ثمرة محاولة إبداعية للنفاذ إلى المدار الإنساني من قبل الفكر الموضوعي، بل إنه نوع من التقليد والمحاكاة لأساليب العلوم البحتة. وهذا التقليد هو الذي يصبغه بالدونية، ولن يستطيع التخلص منها أبداً.

بالنسبة لنا هذا الأمر بالغ الأهمية، إنه يستدعي منهجاً يستند إلى التواصل بين الإنساني والمعطى الطبيعي العام. هذا التواصل يجعل العلوم الإنسانية والاجتماعية، علوماً تستند إلى التاريخ،

والتاريخ لا يبدأ بالوعي، بل من المعطى الفيزيولوجي الطبيعي: تطور الدماغ.

هكذا نعود إلى رؤية داروين المؤسس الفعلي للحداثة ونظريته، الإنسان حلقة من سلسلة طبيعية تتطور في الزمان (البعد الطبيعي التاريخي) فتكون الطبيعة الإنسانية قابلة للتفسير بوصفها جزءاً من المعطى الفيزيولوجي التاريخي، وفي ذلك استبعاد لخصوصية الطبيعة الإنسانية والوعي الإنساني.

لا نريد الخوض كثيراً هنا في هذه المسألة، بقدر ما نريد أن نبين دور النظرية في البحث العلمي، من خلال ما تقوم به من تدخل يحيل الواقع إلى موضوع للبحث، ما الذي يجعل الواقع موضوعاً للبحث؟ إنها المعادلات الاجتماعية، مضاف إليها معادلة الباحث الشخصية.

في النتيجة يمكن التمييز بين نوعين من النظريات: ١- النظريات العامة، ٢- النظريات الخاصة، فمثلاً الماركسية نظرية عامة في التاريخ. أما النظريات الخاصة فهي التي يمتلكها أفراد تكون لديهم رؤية خاصة للأمور والموضوعات تعبر عن فهمهم لها.

التجربة: تدلّ على لقاء العقل وواقع خارجي، وفي مجال

المعرفـة العلميـة تعنـي إعـادة إحـداث ظاهـرة مـا، تمـتّ ملاحظتهـا مسـبقاً فـي شـروط محـددة، لدراسـتها مـن أجـل معرفـة قوانينهـا المتحكّمـة.

هناك نوعان من التجربة، تجربة الفكر والتجربة في الواقع.

أ ـ تجربـة الفكـر تلـك التـي تبـدأ لحظـة الـولادة. إن الإنسـان عنـد ولادتـه يسـتعيد بصـره فجـأة ويصطـدم بواقـع مختلـف، عندهـا تنطلـق تجربتـه الفكريـة، وتنطلـق مخيلتـه التـي لـن تتوقـف حتـى لحظـة مماتـه، إنهـا عمليـة اسـتبدال تجربـة فعليـة بالمعنـى الضيـق للكلمـة، بتمثـلات موقـف يجـري إسـقاطه. فلطالمـا اسـتخدم الإنسـان تلـك التجـارب سـواء بديهيـاً أو علميـاً، منـذ أن كان.

فـي كثيـر مـن الأحيـان تلعـب المخيلـة دوراً حاسـماً فـي تنشـيط الحـدس أو فـي اتخـاذ المواقـف وتشـكيل التصـورات وبنـاء التفسـيرات، وبذلـك فـإن التجربـة الفكريـة تلـك قـادرة علـى التأثيـر فـي النظريـة، أو إنهـا قـادرة علـى إحـداث أزمـة فـي النظريـة.

بهـذا المعنـى تتيـح التجربـة الفكريـة تشـكيل المفاهيـم عـن العالـم مثلمـا تتيـح بنـاء النظريـة العلميـة.

ب ـ التجربـة فـي الواقـع: أو التجربـة الميدانيـة، يتميـز هـذا النـوع مـن التجـارب بصعوبـة ضبـط المتغيـرات المدروسـة كافـة، لكنـه يوفـر مضمونـاً غنيـاً.

فــي علــم الاجتمــاع، يُســتعمل غالبــاً بديــلان عــن التجريــب،

الأول هـو التحليـل السـببي، ويقـوم علـى مقارنـات منظمـة لهـا وظيفـة التجريـب غيـر المباشـر.

الثانـي هـو التحليـل الصـوري أو التحليـل شـبه التجريبـي الـذي يلعـب دوراً أساسـياً فـي تحليـل النظـم المعقـدة للعلاقـات.

فلسـفياً، تثـار مسـألة التجريـب علـى صعيـد التنـازع بيـن التجريبيـة والعقلانيـة، فهـل ينبغـي اعتبـار التجربـة أصـل المعـارف؟ وبالتالـي يعمـل علـى تهميـش العقـل.

واقعيـاً إن التجربـة بحاجـة إلـى الانطـلاق إلـى نظـر العقـل، كمـا أنَّ النتائـج التـي تتوصـل إليهـا التجربـة تحتـاج إلـى التفسـير والتحليـل والتأويل والنقـض والنقـد والضبـط... الـخ. وهـذا دور العقـل.

فـي علـم النفـس، أراد العلمـاء الأوائـل إحـداث قطيعـة مـع التأمـل الفلسـفي والاسـتبطان، وجعـل علـم النفـس علمـاً تجريبيـاً، لكـن ذلـك يثيـر جملـة مـن التسـاؤلات، إذ كيـف يمكـن دراسـة الأحـداث الإنسـانية فقـط فـي المختبـر؟ فـي حيـن أنَّ المخيلـة والعلاقـات الاجتماعيـة، والصـراع والمشـاعر والأحاسـيس هـي أفعـال فـي الحيـاة اليوميـة.

ثـم إن التجريـب فـي علـم النفـس يفتـرض عـزل الفـرد عـن الأحـداث، وتجزئتهـا، فـي حيـن أنَّ ردود فعـل الفـرد غالبـاً مـا تكـون مرتبطـة بهـذه الأحـداث وهـي بديهيـة وشـاملة.

فـي العلـوم الاجتماعيـة كان إميـل دوركهايـم يحلـم فـي أن يجعـل علـم الاجتمـاع، علمـاً تجريبيـاً، علـى غـرار علـم الأحيـاء معتبـراً أنَّ العلـم الاجتماعــي، ولأنــه يتخــذ الأشـياء موضوعــات، لا يمكنــه إلّا أنَّ يســتخدم المنهـاج التجريبـي حتـى يكـون ناجحـاً.

السـؤال هنـا، هو حـول الموضوعـات الاجتماعيـة والإنسـانية والظواهر والوقائـع كيـف لهـا أن تكـون أشـياء؟ فيمـا هـي أفعـال النـاس وحراكهـم، دوركهايـم درس الانتحـار، هـذه الدراسـة حصلـت مـن خـلال التجريـب، أو اسـتناداً إلـى المنهـج التجريبـي؛ التجريـب يفتـرض إحـداث الظاهـرة مجـدداً، ضمـن الظـروف والشـروط عينهـا، هـل أمكنـه ذلـك؟!.

إذا أمكــن إعــادة بنــاء الأحــداث بشــكل اصطناعــي، وفــق الظــروف والشـروط نفسـها، أو وفـق مـزاج الباحـث فـإن المنهـاج التجريبـي صحيـح بـكل معنـى الكلمـة فـي البحـث الاجتماعـي. أمـا إذا لـم يكـن بمقـدور الباحـث إعـادة إنتـاج الأحـداث، فـإن ذلـك يدعـو إلـى التسـاؤل عـن جـدوى المنهـاج التجريبـي المباشـر هنـا.

نعـم، بالإمـكان العمـل وفـق آليـة التجريـب غيـر المباشـر أو وفـق المقارنـة فـي حـال أمكـن إحـداث نمـوذج مماثـل أو قريـب للحـدث.

فــي هــذا الإطــار مــا هــو دور العقــل فــي العمليــات التجريبيــة؟

وما دور العقل في المعرفة؟ إذا كانت المعرفة نتاج العمل العلمي التجريبي.

أمكن استخدام العقل وإمكاناته، القيام بالاستقراء، والانتقال من العيني إلى المجرد، وبات الإنسان يفهم أنَّ ما شاهده من أنواع الأشجار واحتفظ له بصورة في ذهنه هو شجرة، وأنَّ كلّ واحدة في الواقع لها ميزتها. لقد حول رؤيته العينية للشجر إلى صورة مجردة في الذهن، وهذه معرفته التي توصل إليها بِتفكر وتدبر.

تعتبر التصورات العقلية شديدة الحضور في العلوم، لكنها غير مرئية، فهي حاضرة باستمرار وبنسب معينة، تعالج هذه التصورات كل النشاطات المعرفية.

عملياً، عندما يريد الباحث أن يقوم ببحث حول موضوع ما، فإنه ينطلق ببحثه من الملاحظة، يجمع المعلومات والمعطيات، ثم ينطلق إلى الميدان. إنه هنا يدخل حقل التجريب والمقارنة، والبحث الميداني، تلك المسألة حصلت انطلاقتها مما حدث من تنبهات وتصورات وتمثلات في العقل، وأدى إلى فكرة أولية أو تساؤلات حول الموضوع. يعني ذلك أنَّ حقل التجريب يحتاج أولاً إلى النظر والمعرفة، ومن ثم عند حصوله على النتائج أو توصله

إليهـا، هـو أمـام خياريـن: إمـا تركهـا كمـا هـي، وإمـا تحليلهـا وتفسـيرها، وهـذا يحتـاج إلـى الفهـم والتفسـير والتأويـل والنقـد والتفكيـر... الـخ.

فـي حقـل المعرفـة العلميـة، تترابـط عمليـات التفكيـر بالحـوار الـذي يتـم بيـن الـذات وذاتهـا وبيـن الـذات والموضـوع، فتتشـكل الرؤيـة أو النظريـة حولـه، وبذلـك فـإن النظريـة هـي حصيلـة جهـد عقلـي معرفـي متصـل.

## د- الموضوعية والمعرفة العلمية

تمتدّ المعرفة العلمية إلى مجالات تتسع باتساع التخصصات سواء في العلوم الطبيعية أو في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

تذهب العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى دراسة التجربة الاجتماعية، باعتبارها ظواهر قابلة للمعرفة، تتطور هذه المعرفة بتطور التجربة ونمائها، إلّا أنها ستبقى عمومية بالإجمال، طالما هي نشطة في حقل التجربة الجماعية؛ هذا من جهة، ومن جهة ثانية، ستحولها عمليات التحليل الكمّي والتحليل الكيفي من نماذج مثالية إلى معرفة بالوقائع.

هنا سؤال حاد، هل يمكن لهذه العلوم ادّعاء الموضوعية؟ وما مدى قدرة المعرفة وعلم اجتماع المعرفة على تحقيق طموحها إلى الموضوعية؟

تصاغ النظريات داخل النموذج، ودائماً هناك احتمال قوي ألا تكون هذه النظريات متلائمة، فلا يمكن اعتبار إحداها صحيحة دون قيد أو شرط، وما يمكن أن نراه نحن صحيحاً، يمكن أن يراه

آخـرون غيـر صحيـح، طالمـا أنَّ كلّ واحـد منـا يفكـر ويفهـم ويسـتند إلـى مرجعيـة مختلفـة، ولديـه قـدرة علـى التفسـير بطريقـة مختلفـة، وهكـذا، تبقـى مسـألة الصدقيـة التـي تحتـاج إليهـا النظريـة، معلقـة لأنَّ المعرفـة غيـر قـادرة علـى حسـم وتحديـد صحـة أو صدقيـة أو درجـة صدقيـة هـذه النظريـات. والوقائـع التـي نذهـب إلـى دراسـتها، توحـي باسـتمرار أنهـا منفصلـة مـن جهـة ومترابطـة مـن جهـة أخـرى. يـؤدي ذلـك إلـى إسـاءة التفسـير والتحليـل وعـدم القـدرة علـى تنقيتـه، فهـو دائمـاً مرتبـط بالأفـكار والفهـم، وفـي الحالتيـن كليهمـا تكريـس لذاتيـة الباحـث بنسـب مختلفـة.

يفتـرض العلمـاء المشـتغلون فـي حقـل العلـوم الإنسـانية والاجتماعية، أو كثيـر منهـم، أنهـم يبتعـدون عـن الذاتيـة، عندمـا يتبعـون المناهـج العلميـة الصارمـة فـي دراسـتهم (إن تقريـر اتبـاع منهـج معيـن مـن قبـل الباحـث، أو تقريـر القيـام بدراسـة معينـة والسـير بهـا هـو قـرار مرتبـط بذاتيـة الباحـث أصـلاً قبـل كلّ شـيء)، وإن اتجاهـاً نحـو المنهـج التجريبـي، يُغنـي عـن التأمّـل والتصـوّر، اللذيـن يكرسـان ذاتيـة الباحـث، وقـد أخـذ علمـاء الاجتمـاع خصوصـاً (ذوي الأصـول الغربيـة) يحـددون آليـات البحـث العلمـي، الـذي يحيلنـا إلـى مـا يمكـن اعتبـاره المعرفـة الموضوعيـة، بارتكازهـا علـى مبـدأ العلـة الكافيـة:

الضرورة: الإمكان.

النظرية: أولوية النظرية.

الفرضية: نظام الفرضيات.

التجربة: التدخّل في الواقع.

طريقة المقارنة.

النتائج: الحقيقة كنظم متكاملة.

شكلت هذه النقاط العناصر الأولية للمنهج العلمي الموضوعي المعاصر.

ثمة حقيقة لا يمكن تجاوزها، وهي أنَّ هذا المنهج نشأ وتتطور في العلوم البحتة، والسؤال الذي يُطرح هنا: هل يلائم هذا المنهج العلوم الإنسانية والاجتماعية؟ وهل ينبغي أن نُسلّم بلا نقاش مع إميل دوركهايم وكارل ماركس وغيرهما في هذا الشأن؟

أتاح الارتكاز على مبدأ العلة الكافية لهذا النظام المعرفي الاندفاع من حيث ديناميته إلى اقتحام ميادين جديدة، إذ إن ما ينطبق على العلوم البحتة، لا بُدّ وأن ينطبق على العلوم الإنسانية والاجتماعية طالما تعتمد المبدأ نفسه، وإلّا حصل الخلل بالمبدأ.

هنا حصل عبور من العلم الطبيعي إلى العلم الإنساني، إنه عبور الضرورة والإمكان. تلك نقطة ارتكاز مغامرة الحداثة

الأوروبيـة، العبـور مـن خصوصيـة الإنسـان وانفصـال الدينـي عـن قوانيـن الموجـودات إلـى مبـدأ السـببية المعمّمـة، إلـى الموضوعيـة فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة.

ليسـت مسـألة فصـل الدينـي عـن الدنيـوي، بمعنـى تحييـده عـن السياسـة والحكـم، وإنمـا كذلـك تجريـد الفـرد مـن إمكانيـات منطقـه الداخلـي.

شـكّل الانفصـال عـن الدينـي فـي توليـد الحداثـة، ضـرورة، فـكان التصدي للفكـر الدينـي مـن خـلال الفكـر العلمـي باسـتخدام مناهـج العلـوم البحتـة، فـي العلـوم الإنسـانية. تميـزت هـذه المواجهـة بعـدة خصوصيـات كان أهمهـا:

١ ـ إنّ نـواة الفكـر العلمـي (الموضوعـي) تمثّلـت فـي الإجابـة عـن سـؤال هـام حـول موضـوع علـم الاجتمـاع؟ فـي أنَّ المعرفـة العلميـة عمومـاً، والمعرفـة العلميـة الاجتماعيـة خصوصـاً، ترتبـط بمصالـح الفاعليـن الاجتماعييـن، ولهـذا فـإن علـم الاجتمـاع يسـتمد قيمتـه المعرفيـة مـن مصالـح الفاعليـن الاجتماعييـن، الذيـن يتصرفـون بحكمهـا وبموجبهـا؛ كان ذلـك ضروريـاً، إذ إن المعرفـة تشـترط لإثبـات علميـة أيّ مـن العلـوم مـن ضمـن مـا تشـترط أن يكـون للعلـم موضوعـه الخـاص.

٢ ـ أن ينطلق العلم الموضوعي (الإنساني والاجتماعي) من الضرورة والإمكان، اللذين يستدعيان الحساب الكمي. يعني ذلك أنَّ الفكر الاجتماعي لن ينطلق من مبدأ العلة الكافية وإن استند إليه، بل من مبدأ الضرورة. (لاحقاً سوف تتجه العلوم الإنسانية إلى الحساب الاحتمالي).

هل يكفي ذلك للتسليم بصدقية العلوم الإنسانية والاجتماعية وموضوعيتها؟

ثمّة تنبيه هنا، حول ما يمكن أن نسميه العلم الإنساني ضد الوعي الإنساني أو المنطق الداخلي للإنسان. إن إجراءات مثل الضرورة والإمكان تقتضي إلغاء الوعي الذي اعتبر من ترسبات الفكر الديني.

إذن، لقد تبدلت النظرة إلى الإنساني، وأصبحت جزءاً من الوجود الطبيعي العام، جزءاً من الأشياء الموجودة، ولهذا جرى التعامل معه كشيء، وشدّد المؤسسون لعلم الاجتماع وفي مقدمهم إميل دوركهايم على أنَّ العلم الاجتماعي يتّخذ الأشياء موضوعات له، وبهذا اعتبر الإنسان وحراكه وما ينتجه في الميادين الاجتماعية أشياء تُدرَّس، أو قابلة للدراسة. وبذلك أصبح الإنساني موضوعاً للعلم، وبات ينظر إلى الأمر باعتباره بداهة. هل الأمر على هذا النحو؟ وهل ينبغي أن نُسلّم بذلك؟

ليـس الأمـر بديهيـاً علـى الإطـلاق، لمـاذا يكـون الإنسـان موضوعـاً للعلـم؟ ولمـاذا يكـون حيثيـة مـن حيثياتـه؟ الجـواب عـن ذلـك، هـو أنَّ مـا اقتضـى اعتبـاره هكـذا، هـو ضـرورة الانفصـام، انفصـام الإنسـان إلـى اثنيـن: إنسـان ينظـر إلـى إنسـان ويدرسـه، وإنسـان يـدرس، ويشـرح، إنسـان يفعـل وإنسـان موضـوع للفعـل، هنـا معنـى إعـلان مفهـوم الآخـر، الإنسـان الآخـر الـذي هـو موضـوع للفعـل، هـو الإنسـان الـذي يمثـل حقـل التجـارب والاختبـار، وهـو الإنسـان الـذي سـيوصف بالبدائـي، الـذي ينبغـي الوصايـة عليـه.

هــذا الانفصــام بيــن الإنســان والآخــر، ســوف يســتكمل بانفصــام آخـر يتمثّـل فـي انفصـام مفهومـي الوعـي واللاوعـي، ويرتكـز علـى تمثـل الحقيقـي وغيـر الحقيقـي، ومـن يمثـل الحقيقـة؟ الحقيقـة التـي تنتـزع مـن وراء الوعـي، هـذا الانتـزاع يقـوم بـه أنـاس مختصـون أو مخصوصـون، علمـاء يتفضّلـون علـى الآخريـن باقترابهـم مـن حقيقـة العلـم، مـن الحقيقـة التـي تكمـن فـي ميـدان مغايـر أصـلاً للميـدان الإنسـاني، ميـدان العلـوم البحتـة.

مـا ينبغـي الالتفـات إليـه هنـا، أيضـاً، أن تأسـس العلـوم الاجتماعيـة والإنسـانية وانتشـارها مـن الأمـم الصناعيـة، إثـر تصـدي «الفكـر العلمـي» «للفكــر الدينــي» فيمــا عــرف بعصــر الأنــوار، مســؤولان مباشــرة عــن

انتماء هذا العلم واستعراقه، الذي نكتشفه في العديد من الأبحاث الاجتماعية والأنتروبولوجية؛ فقد كانت النظريات التي وضعها علم الاجتماع والأنتروبولوجيا في المراحل الأولى، وكذلك منظِّرو التنمية الذين عملوا مع الوكالات الدولية للتنمية التي أُنشئت بعد الحرب العالمية الثانية، ميالين إلى تفسير المسارات الإنمائية وعمليات التنمية من النمط الغربي، باعتبارها نموذجاً متميزاً، يعتبر منطقه قابلاً لأن يكون شاملاً، ودفعوا أيضاً إلى اعتبار دول العالم الثالث متماثلة، بعمق بعضها مع بعض، وإلى التوجه نحو البحث عن نظرية عامة للتنمية.

ليس ثمّة شك بأنّ مفاهيم علماء الاجتماع والإنسانيات، تتأثر غالباً بمصالحهم، وبصورة أعم بالالتزامات التي يفرضها عليهم دورهم ووضعيتهم ووظيفتهم، وكذلك أحكامهم المسبقة، أو المفاهيم المسبقة (التي يمكن أن تنجم عن انتمائهم إلى إطار اجتماعي وتاريخي وثقافي خاص)، «في العلوم الاجتماعية كما في العلوم الطبيعية، إن الإيديولوجيات والمعتقدات والانفعالات، هي أجزاء مقومة لا غنى عنها للبحث[1]».

(١) راجع: ر. بودون، وف. بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع. م. س. ص ٥٣٤.

كذلك فإن ليفي ستراوس عالم الأنتربولوجيا اعتبر «أنَّ هذا التواصل الزماني والمكاني بين نصاب الطبيعة ونصاب الثقافة، الذي شدد عليه اسبينياس كل التشديد... هو الذي ترتكز عليه تاريخانية بواس... وإن كان من الواجب عزل الظاهرات الاجتماعية بصورة موقتة عن سائر الظاهرات، ومعالجتها كما لو أنها تنتمي إلى صعيد مخصوص، فإننا نعلم من حيث الواقع، بل من حيث المبدأ، أنَّ بزوغ الثقافة سيظل بالنسبة إلى الإنسان سراً من الأسرار، ما دام هذا الإنسان لم يتوصل، على الصعيد الحياوي، إلى تحديد التحوّلات البنيوية والوظيفية التي طرأت على الدماغ، هذه التحوّلات التي كانت الثقافة نتيجتها الطبيعية»[1].

ينزع هذا الفهم إلى ربط المجتمعي بالطبيعي، وبالتالي اعتبار الظواهر الاجتماعية جزءاً من الظواهر الطبيعية، ثم إن الإنسان لا يتميز بوعيه وإنَّ سِرّهُ يكمن في دماغه، كمعطى فيزيولوجي وظيفي، في عملية إقصاء كاملة للعقل. فهل الإنسان هنا يستجيب لخصائص الأشياء وفقاً لبعض الصور أم أنه ذو طبيعة فكرية! لقد أرادوه مستجيباً فقط!!

(١) ستراوس، كلود ليفي، من مقالات في الإناسة، ترجمة، د. حسن قبيسي، دار التنوير، بيروت، ص ٧٧، د. ت.

مـن المفارقـات هنـا أنَّ هـؤلاء العلمـاء لـم يـروا فـي نظرياتهـم ومفاهيمهـم أنهـا تتناقـض مـع الموضوعيـة والطبيعـة الإنسـانية.

بعـد كلّ هـذا الـكلام الـذي تقـدم، هـل نسـتطيع الاسـتنتاج أنَّ العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، غيـر قـادرة علـى ادعـاء الموضوعيـة؟ وهـي مجـرد طامحـة إليهـا، هـل بالإمـكان التمسـك بهـذه الريبـة؟

لقـد أعطـي معنـى الموضوعيـة فـي تلـك العلـوم بعـداً يسـتند إلـى القـدرة لـدى الجهـد التفكيـري علـى إعـادة تركيـب الوقائـع وفـق أنظمـة عقلانيـة متماسـكة، تبيـن ترابطهـا وتوفـر القـدرة علـى التحكّـم فيهـا عبـر اكتشـاف قوانينهـا. هـذه القوانيـن هـي مـا يعيـد المتغيّـر والمختلـف مـن الوقائـع إلـى الثابـت والمعلّـل. بهـذا، فـإن حقيقـة الجهـد العلمـي وأسـاليب البحـث العلمـي، والمعرفـة العلميـة، تصبـح أوضـح؛ إذ إن مراحـل البحـث العلمـي جعلـت محكومـة جميعـاً بضـرورات الموضوعيـة.

يبـدأ البحـث مـن الفرضيـة وليـس مـن الوقائـع المبعثـرة. بـكلام أدق، يأخـذ هـذه الوقائـع باعتبارهـا عناصـر تنظّـم بنظـام متكامـل (الفرضيـات)، وإن كان هـذا النظـام مؤقتـاً ويمكـن تعديلـه لاحقـاً، هـذا النظـام المحتـاج إلـى تعليـل وإثبـات أو إبطـال (نظريـة بوبـر)، يظـل أفضـل مـن المعطيـات المبعثـرة التـي تقـدّم نفسـها كأمـر بديهـي، هنـا يكمـن معنـى الفرضيـة ووظيفتهـا، فـي مـا تسـتدعي التجريبيـة.

ثمـة إذن كل الدواعـي للريـب فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة التـي اسـتعارت مراحـل البحـث مـن العلـوم الطبيعيـة، واسـتعملتها.

تذهـب العلـوم الطبيعيـة فـي البحـث باتجـاه تركيـب ثنائـي بسـيط، مؤلـف مـن الباحـث والأشـياء أو الموضوعـات، ويصـوغ العلمـاء نظرياتهـم ويتناولـون الواقـع فـي إطـار مقترحـات غيـر مثبتـة تحتـاج إلـى البرهنـة والإثبـات. (الفرضيـات).

أمـا فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة المسـتعيرة لآليـات بحثهـا، فـإن المسـألة تبـدو مختلفـة بشـكل كلـي ونوعـي. فالعلاقـة تبـدو علـى الشـكل التالـي: الباحـث، الموضـوع، الوقائـع، ثلاثيـة الأبعـاد، إلا أنهـا تـدور فـي إطـار واحـد، بمعنـى، أنَّ الباحـث هـو نفسـه الموضـوع، (إذ إن العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة جعلـت الإنسـاني موضوعهـا) فهـو يبحـث فـي نفسـه وفـي أفعالـه، أيـن أصبـح الموضـوع هنـا؟ (هـذه نقطـة فـي خانـة صدقيـة علميـة العلـم فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة).

الموضـوع هنـا ليـس بديهيـاً ولا ناجـزاً، إنمـا هـو إشـكالي. إنَّ الوقائـع التـي ينتجهـا الإنسـان فـي حراكـه هـي إشـكالية بامتيـاز، فـإذاً، مـا هـو دور الفرضيـة هنـا؟ فـي دراسـة الـذات لذاتهـا؟

إن ذلـك يسـتدعي بالضـرورة، تأثيـر المعادلـة الاجتماعيـة -

الشخصية والعناصر التفسيرية النظرية. ويزداد الريب في الميل إلى استخدام أساليب للدراسة الاجتماعية تفقد الظاهرة الاجتماعية ما يجعلها إنسانية، أي باعتبارها نتاجاً فاعلاً لديه القدرة على الحضور والتعبير.

ثمة دواعٍ كثيرة للشك في أنَّ كُثراً سيحاولون المحافظة على ضرورة الفرضيات التي يتطلب التحقق منها أو دحضها في إطار الإصرار على التجريب في حقل العلوم الاجتماعية والإنسانية. (سيجري نقاش هذه النقطة لاحقاً).

في المحصلة، ينبغي الالتفات إلى أنَّ المعرفة هي نوع من استيعاب العارف لما يريد أن يعرفه، بمعنى أنَّ العلم استحضار للمعلوم، هذا الأمر يتم في العلوم الطبيعية من خلال نظرية الباحث التي يصوغها، في إطار نماذج مثالية هي نفسها غير ثابتة، أما في العلوم الإنسانية والاجتماعية، فلا يمكن أن يتم إلا بمساهمة الباحث في دفع الموضوع، أو الإنسان الآخر موضوع البحث، أو مساعدته على الحضور، كذلك فإن علماء الاجتماع والإنسانيات، يتطرّقون إلى الواقع الذي يطمحون إلى توضيحه، ليس في حال البراءة وإنما مسلحون بنماذج مثالية يشكلون نظرياتهم ومفاهيمهم انطلاقاً منها. هذه النماذج تشكل طرائق لأولوية الأشكال بالمعنى

الذي استعمله كانت (Kant)، لقد تمّ تبنيها أقله في مرحلة أولى، على أساس فعل إيمان بدلاً من الإثبات، ومن الممكن مثلما يقول فيرابند (Feyerabend) أن يكون الفرق بين العلوم الطبيعية وعلوم الإنسان حول هاتين النقطتين، الإيمان (التسليم) والإثبات[1].

هل يجيز لنا ما تقدّم الادّعاء بأن العلوم الإنسانية والاجتماعية، لا يمكن لها الاستفادة من الأساليب المعرفية ومن الموضوعية في العلوم الطبيعية، بالطبع لا، بل إنّ هذه الاستفادة ينبغي أن تكون مرهونة بالمحافظة على الموضوعية، من خلال إقامة نقد عقلاني للنظريات والطروحات والأفكار والأعمال بلا استثناء.

---

(١) حول هذه المسألة راجع:

Paul Feyerabend. contre la méthode, Éditions du seuil, 1979.

# الفصل الثاني

# البحث العلمي وأنواعه

# أ ـ ما هو البحث العلمي؟ وما معناه؟

لماذا اخترنا أن نصوغ هذا السؤال، قبل أي نقاش؟

أولاً: لأننا هنا لا نسعى إلى النظر في نمط محدّد من الأبحاث العلمية، ونسأل عنه، وإنما نسعى إلى النظر في معنى البحث العلمي، ذلك أنَّ التعرض لهذه النقطة يتيح لنا فهم حقيقته، أو ماهيته، قبل الغوص في أصوله ومنهجياته، وكذلك فإن ما نسعى إليه قد يتيح لنا الحصول على إجابة عن سؤالنا. وقد يساعدنا أكثر على تبيان مدى العلاقة أو الافتراق بين المنهجيات والممارسة في البحث العلمي، لا يقتصر الأمر هنا على استنتاج أنَّ هناك افتراقاً بين منهجيات البحث وممارسته، أو تطابقاً، بل محاولة كي نعي تماماً الأهداف التي على أساسها صيغت طرائق البحث ومنهجياته في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

إن ما يضعف البحث العلمي هو عدم تمكّنه من تلبية احتياجات علمه، وهو أنَّ سلطة مناهج العلوم البحتة أبقته تحت تأثيرها حتى الآن.

إنّ الإبداعات العلمية التي تحققت في الأزمنة الغابرة التي سبقت نهضة أوروبا وثورتها، لم تكن بحاجة إلى برمجة، ولم تتشكّل بقوة عقلانية مهيمنة، بل بسلسلة نقلات حرة[1] للعقل في حقول المعرفة؛ إننا ونحن ندعي هذا الكلام، حريصون على عدم التسرّع في نقض البحث العلمي المعاصر، ونطرح من موقع دلالي إمكانية توافر نظام معرفي لغوي يتيح للبحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية تخطّي عقدة النقص حيال العلوم الطبيعية.

ثانياً: إن الحاجة التي يرزح تحت وطأتها العلم، تمثّل الأساس في ممارسة البحث وانطلاقته بغية إشباعها.

لقد سعى الإنسان، إلى فهم العالم ومعرفة ما حوله، وبناء تصوره، وإن وضعيته وهمه في الحصول على المعرفة، ألزمته بالبحث، وبالفعل، يظهر أنَّ المعيار الأساس والأول للبحث هو المعرفة، هكذا شكلت المعرفة حاجة ملحّة بل أكثر إلحاحاً لدى الإنسان، فكانت حاجة يرزح تحت وطأتها العلم.

إنّ أطروحة كهذه تطمح إلى إعطاء البعد الحقيقي للبحث العلمي. إنّها تؤدّي في الواقع إلى سحب صفة الموجب وإضفاء صفة ملبّي الحاجة للمعرفة.

---

(١) حول هذه النقطة راجع: Jean- Francois Lyotard: L'Enthosiasme, Editions. Galilee.

إذا قبلنا هذا الكلام، فإن معيار النزاهة، يصبح هو المعيار الثاني للبحث العلمي، كذلك المسؤولية، هي المعيار الثالث.

إن المعايير التي نوردها هنا لا تتميز بقدرتها على التحكّم في غايات الباحثين وأهدافهم، وإلزامهم بما تمثله، ولا بالقدرة على إضفاء صفة القداسة والطوباوية على أي بحث علمي، وإنما هي معايير مقترحة بالإجمال للبحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ثالثاً: لأنَّ صناعة المعرفة والحصول عليها مهمان إلّا أنّ الأهم هو كيفية الحصول والصناعة. يدرك الكثيرون الصفة الاصطناعية للمعرفة، بمعنى أنَّ المعرفة تصنع بوساطة مناهج وأعمال إنّها المعرفة المُنْتجة، هذه المعرفة نحن الذين نصنعها وننتجها، ويمكننا أن نطوّرها ونعدّل بها ونغيرها ونزيد عليها.

ثمة معرفة أخرى، هي المعرفة القبلية، كيف نحصل عليها؟ لقد تميز الإنسان من غيره، من الموجودات بقدرته على الفهم والتحليل والتركيب، هذا نتاج امتلاكه للعقل، الذي يختزن قبليات معرفية، تتظهر خلال مراحل الحياة التي تنطلق منذ الولادة حتى الممات، على مستوى الفرد ومستوى الجماعة.

ثمة تواصل بين المعرفتين، إذا كان الإنسان ينتج معرفة فإنه

يستخدم عقله لإنتاجها إلى جانب حواسه، وإنّ عقله الذي يمكّنه من إنتاج المعرفة يقدم له الأوليات المعرفية للإنتاج.

بعد إيراد هذا التمييز والعلاقة باختصار، يمكن إعادة المسألة الرئيسية المطروحة، كيفية صناعة المعرفة وحصولها؟ هناك اختلاف بين إنتاج المعرفة والمعرفة المنتجة، وهذه نقطة جوهرية.

فللمعرفة حقائق، والحقائق نفسها متغيّرة، والإنسان يمتلك أكثر من طريقة للوصول إليها وممارستها. هناك طريقتان متفق عليهما:

الأولى: الوصول إلى المعرفة وممارستها عن طريق الحواس، وتسمّى بالمنهج الاستقرائي، يعني ذلك، من خلال المشاهدة والمعاينة والملاحظة للوقائع والأحداث والظواهر واستقرائها عمليّاً وتجريبياً، كذلك فحص الدراسات السابقة.

الثانية: الوصول إلى المعرفة وممارستها عن طريق العقل، بالاستدلال، وهذا يعني أن ينطلق الباحث من فكرة أو رؤية أو افتراض، ويضع احتمالات، ويذهب باتجاه برهنة صحتها أو عدم صحتها، وهذا ما يسمى استنباطاً أو استدلالاً.

استخدام كلّ من المنهج الاستقرائي أو الاستنباطي سيواجه عمليات النقد، فعندما يقول باحث إنه استخدم الاستقراء في بحثه وتوصل إلى النتائج التالية، سيقال له إنَّ ما توصل إليه من نتائج، هو

فـي الأسـاس خاضـع للتوجيـه، بمعنـى أنـه عندمـا انطلـق مـن فكـرة أو نظريـة، أو افتـراض فـي بحثـه، قـد حـدد مسـبقاً وجهـة البحـث، وبالتالـي أصبحـت النتائـج أقـرب إلـى أن تكـون معلومـة مسـبقاً، فهـي تمثـل إمـا توافقـاً مـع الفكـرة، وإمـا تعارضـاً معهـا. معنـى ذلـك أنـه قـام مسـبقاً بتوجيـه البحـث؛ وهـو عندمـا كان يلاحـظ أو يقـرأ ويعايـن الأحـداث والظواهـر، تشـكلت لديـه فكـرة البحـث، وانطلـق منهـا إلـى أنّ وصـل إلـى مـا وصـل إليـه.

وعندمـا يعلـن باحـث آخـر موقفـاً مختلفـاً، وأنّـه اسـتخدم المنهـج الاسـتنباطي، للوصـول إلـى النتائـج التـي توصّـل إليهـا، سـيواجه بموقـف نقـدي أيضـاً؛ هـو أنّ مـا قـام بـه إنّمـا هـو عمـل حدسـي يسـتند إلـى الحدس وإلـى الحـواس، هـو عمـل عقلـي بامتيـاز، وبالتالـي فـإن الباحـث قـد حصـل علـى نتائـج عملـه مـن خـلال تشـغيل الحـدس أكثـر مـن العمليـات الإجرائية البحثيـة. فـي المحصلـة يقـع الاثنـان فـي دائـرة توجيـه العقـل لأعمالهـم وتدخّلـه فيهـا مباشـرة وغيـر مباشـرة.

إنّ كلاً مـن الباحثيـن الاثنيـن أمـام مواقـف نقديـة، وهمـا يحتاجـان إلـى تبريـر مـا قامـا بـه وتوضيحـه.

يرتكــز هــذا التوضيــح علــى وعــي التمييــز بيــن «الاســتقرائي» و«الاســتنباطي»، أي بيــن «الإجرائــي» و«النظــري».

يُنتــج الإنســان معرفتــه بالعالــم المجتمعــي بوســاطة أدوات

وتقنيات يستخدمها في حقل التجريب والاختبار (الإجرائي)، وينتجها في الوقت عينه في إطار العمل التفكُّري والتأمُّلي، الذي تراكم عبر التاريخ (النظري).

ما الذي يمكن أن ينتج من عدم وعي التمييز بين «الإجرائي» و«النظري»، ينعكس عدم التمييز بين الاثنين، خلال الأعمال البحثية، أو نقاش القضايا المعرفية والمفاهيمية.

أمام هاتين المسألتين، وعي التمييز وعدم وعيه، ما الذي ينبغي فعله ؟

هذه نقطة تحتاج إلى فهم نقاط الالتقاء ونقاط الافتراق بين المنهجين:

١ ـ يلتقي كل من الاستقراء والاستنباط من حيث المنطلقات الأساسية، إذ إنهما ينطلقان من رؤية، صاغها الفكر في كيفية الحصول على المعرفة، أو أنّ كلّاً منها انطلق من رؤية صاغها الفكر، وهذا يعني أنّ المنهجين كليهما هما نتاج عمل تفكري، عقلي، وإدراكي، يلعب العقل فيه دوراً أساسياً، وفي تحديد وتوضيح وتفسير كلّ منهما.

يفترق المنهجان إجرائياً، إذ إنّ لكلّ منهما إجراءاته وطريقته في الاشتغال.

لقد مارس المنهج العلمي المعاصر، الخداع منذ فرنسيس

بيكـون، إلـى جـون سـتيوارت ميـل وبرنـار رواد الاتجـاه الاسـتقرائي (التجريبـي) إلـى ديـكارت وحركـة أكسـيوماتيك[1][2] الحديـث وصـولًا إلـى برترانـد راسـل، والاتجـاه الرياضـي (الاسـتدلالي) كيـف؟

أ ـ المنهـج العلمـي التجريبـي: هـو منهـج العلـوم الطبيعيـة، أولاً، ومنهـج العلـوم الإنسـانية ثانيـاً، ويعتمـد الاسـتقراء، كان فرنسـيس بيكـون قـد وضـع أساسـه العلمـي الحديـث فـي فكـر النهضـة فـي كتابـه الشـهير (الأورجانـون الجديـد) الـذي حـل محـل أورجانـون أرسـطو، وفيـه يـرى للملاحظـة أو المشـاهدة والتجربـة أو الاختبـار الأهميـة الأولـى.

المنهـج الرياضـي: تطـور مـع ديـكارت الذي وضـع الهندسـة التحليلية، معتبـراً العلـم الرياضـي، العلـم الرابـط بيـن جميـع العلـوم، وفيـه تتمثـل الطريقـة الصحيحـة لقيـادة العقـل، مميّـزاً بيـن الحـدث والاسـتدلال، بطريقـة منهجيـة، تعتبـر أسـاس تطـوُّر العلـم الرياضـي المعاصـر.

---

(١) حركة الأكسيوماتيك الحديث، هي حركة النقد الداخلي في الهندسة، ابتدأت مع محاولة الأب ساكيري الرياضي الإيطالي «برهان التخلّف على المُسلَّمة الاقليدية الخامسة (المتوازيان) في القرن الثاني عشر الميلادي».

(٢) الأكسيومية وتعني منظومة الأوليات.

للمنهــج العلمــي المعاصــر بشــقّيه التجريبــي والرياضــي، أســس معرفيــة، محــددة، تبــدأ مــن كــون إدراك الظواهــر الطبيعيــة والإنســانية والحقائـق الرياضيـة وبراهينهـا، أمـراً ممكنـاً علـى الـدوام، وهـذا الإدراك هـو نسـبي باختـلاف مناهـج البحـث، واتجاهـات الباحـث، وزوايـا بحثـه[1].

بالنظـر إلـى المعاييـر الأساسـية والمنطلقـات التـي ينطلـق منهـا كل مـن المنهجيـن، نجـد أنهـا تبـدأ مـن المعرفـة، مـن اشـتغال العقـل، مـن إطـلاق فكـره، إنهـا بالأصـل مسـألة عقليـة تفكريـة.

إذا قبلنـا هـذا الـكلام، يكـون الـكلام عـن التمايـز الـذي يقدمـه المنهـج العلمــي المعاصــر، فــي التفريــق بيــن منهجيــن اثنيــن، والتصــور للفصــل بينهمـا نظريـاً غيـر متوافـق مـع الأصـول، وبالتالـي فـإن التمايـز يقـع فـي الممارسـة المنهجيـة لـكلّ منهمـا وطرائـق الاشـتغال.

إن مــا يضعــف التصــوّر هنــا، هــو أنّ ســلطة الأصــل تبقــى ضاغطــة فــي تحديــد المعاييــر، وهكــذا، هــل ثمّــة مــا يغوينــا فــي تقســيم المنهجيــن وفصلهمــا، بوســاطة التعميــم التعســفي، بــأنّ التجريبــي شــيء والرياضــي شــيء آخــر؟ إنــه خــداع منهجــي، جــرت ممارســته فــي حقــل العلــوم الإنســانية والاجتماعيــة، اعتمــاداً علــى فكــرة القطــع المنهجــي.

(١) د. منيمنة، جميل، المنهج العلمي المعاصر، من وجهة إبستيمولوجية، مجلة الفكر العربي، العدد ٥٥، السنة العاشرة، كانون الثاني، شباط ١٩٨٩ – ص ٩٣. م. س.

إنَّ الفاصل بين التجريبي والرياضي، يقع في حقل الممارسة العملية، وليس في أساس الاشتغال العقلي.

لنأت الآن إلى سؤال ثانٍ، متعلّق بالنشاط المعرفي، وبرنامج علم اجتماع المعرفة وغرضه. لقد أراد علم اجتماع المعرفة مع لاكاتوس (Lakatos)، ومنهايم (Menheim) ودوركهايم، أن يضع تحت ولايته «محدّدات» المعتقدات والإيديولوجيات وكذلك المعرفة، وقد اعتبر دوركهايم أنّ هذه المعرفة تُشتقّ مباشرة من التجربة الاجتماعية.

إنَّ التجربة الاجتماعية، التي اشتملت على ما هو مقدس وما هو محظور خُلُقي وغير ذلك، أعطت الإنسان أفكاراً مختلفة ومتنوعة وأنتجت معارف. إلا أنها ليست سابقة للأحاسيس والأفكار التي يمتلكها الإنسان، الفرد والجماعة، والتي بدونها لا يمكن الحصول على المعرفة، باعتبار أنَّ الإنسان الفاقد لمقدّساته العقلية ليس بمقدوره إنتاج المعرفة، وإن مارس التجريب في أي من حقول الحياة.

إن ما اقترحه دوركهايم هو في الأساس عملية إقصاء للدين وإبعاد للفكر الكنسي، وإضفاء صبغة علم الاجتماع على الأشكال الشهيرة السابقة للتجربة.

علينـا أن نلتفـت هنـا إلـى نقطـة مهمّـة، أرادت أن ترسـخها رؤيـة دوركهايـم وهـي تتعلـق بالوعـي الإنسـاني، بمعنـى أنهـا أرادت العبـور مـن خصوصيـة الإنسـاني ووعيـه، وانفصـال الدينـي، عـن قوانيـن الموجـودات وحركيتهـا، إلـى مبـدأ السـببية المعممـة، أي إلـى الموضوعيـة والموضـوع.

هـذه هـي المسـألة التـي قـام عليهـا الفكـر العلمـي المعاصـر، أو هذه النقطـة الأسـاس التـي كان عليـه تحقيقهـا مـن أجـل أن يحقـق أهدافـه. إن التصـدّي الـذي بـدأه الفكـر الموضوعـي للفكـر الكنسـي كان لـه خصوصيات، أهمهـا انطلاقتـه التـي كانـت مـن الضـرورة، فهـو لـم يـأتِ نتيجـة لجهـد إبداعـي، بـل لأنَّ الاضطـرار حتـم ذلـك. هـذه نقطـة أساسـية.

إنّ انطـلاق هـذا الفكـر مـن مبـدأ الضـرورة (أشـرنا إلـى هـذا الأمـر سـابقاً)، اسـتدعى الحسـاب الكمـي، لكنـه لاحقـاً سـيتجه إلـى الحسـاب الاحتمالـي خصوصـاً فـي العلـوم الإنسـانية، التـي سـتبقى منجذبـة إلـى العلـوم الدقيقـة. إنّ التصـدّي الـذي كان ضروريـاً واضطراريـاً، اسـتدعى محاولـة مسـتميتة لتعميـم السـببية العلميـة اسـتكمالاً لذلـك، يسـتدعي الأمـر معركـة أخـرى ضـد الوعـي الإنسـاني، فأصبحنـا أمـام معادلـة، العلـم الإنسـاني ضـد الوعـي الإنسـاني. لقـد اعتبـر الوعـي

الإنسـاني أو مفهـوم الوعـي بمثابـة عنصـر مترسّـب أو مـن بقايـا الفكـر الدينـي المـوروث.

لقـد أغفـل هـذا الفكـر أنَّ الوعـي يؤسـس للمعرفـة ويطلقهـا، وبالتالي فـإن مـا مارسـه هـذا الفكـر هـو أيضـاً خـداع علمـي ومنهجـي، تمثـل فـي إقصـاء الوعـي وتعميـم التجربـة.

لقـد كان علـى هـذا الفكـر أن يلتفـت إلـى العلاقـة القويـة بيـن الوعي والمعرفـة وإنتاجهـا، بعيـداً مـن اعتباراتـه الثأريـة ضـد الديـن، وموقفـه مـن الفكـر الكنسـي، وأغفـل أنّ الإنسـان لديـه معرفـة تؤمّـن لـه الانطـلاق فـي إنتـاج معارفـه الأخـرى، إنّهـا المعرفـة القبليـة.

حـاول بـول لازار سـفيلد، عالـم الاجتمـاع الأميركـي، أن يعطـي تفسـيراً لـولادة الفكـر العلمـي المعاصـر، مـن خـلال إشـارته إلـى التحـوّلات الجذريـة التـي عرفتهـا أوروبـا فـي القرن التاسـع عشـر، بعد الثـورة الصناعيـة التي أتت علـى النظـام القديـم، إذ إن «الأفـكار العقلانيـة والمبـادئ التـي ظهـرت فـي عصـر الأنـوار وروّجتهـا الثـورة الفرنسـية، لـم تسـتطع المسـاهمة فـي إحـلال نظـام مجتمعـي جديـد، فـكان لا بدّ من إيجـاد طريقة لإحياء الحـس الجماعي مـن خلال دراسـة لأشـكال الاغتـراب والعلاقـات الطبقيـة الجديـدة التي كانت تعانيهـا الجماهيـر العماليـة، لذلـك وضـع رواد علـم الاجتمـاع ومؤسسـوه فـي القـرن التاسـع عشـر، نصـب أعينهـم مهمـة إيجـاد الحلـول والعـلاج

للتفسـخات التـي أصابـت البنيـة المجتمعيـة القديمـة التـي كانـت سـائدة قبـل انتشـار النظـام الرأسـمالي»[١].

هنـا يشـير لازار سـفيلد إلـى مـأزق المجتمـع الأوروبـي بعـد الثـورة، ويرجـح أن تكـون الأزمـات المجتمعيـة الأوروبيـة هـي التـي سـاهمت فـي نشـأة علـم الاجتمـاع، والفكـر الموضوعـي.

إن هـذا النقـاش يرتكـز علـى مسـألة الأزمـات، وليـس علـى المنطلقات الأساسـية للفكـر الموضوعي وأسـبابه.

وهـو يذهـب إلـى جعـل تلـك الأزمـات سـبباً لنشـوء العلـم، دون أن يلحـظ دور هـذا الفكـر فـي تبـدّل البنـى الاجتماعيـة فـي أوروبـا، مـن خـلال الأفـكار والمبـادئ التـي أطلقهـا، والتبـدلات التـي أنتجتهـا الثـورة، مركّـزاً علـى الأزمـات باعتبارهـا هـي التـي أمّنـت الشـروط الواقعيـة لوعـي البنيـة الاجتماعيـة، واسـتقلالها، وانفصالها عـن الفـرد والأفـراد، وأنّ الأفـراد لا يصنعـون الأزمـات، بـل يتلقـون مفاعيلهـا السـلبية، ويعيشـون تحـت وطأتهـا.

مـمَّ يتألـف إذن المجتمـع الإنسـاني؟ أو مـمَّ تتكـون البنـى التحتيـة؟

---

(١) Lazarsfeld, Paul, qu'est-ce que La Sociologie, Gallimard, Paris, 1970, p1.

إذا كان الواقـع المجتمعـي الجديـد يتطلـب الدراسـة، فـإن ذلـك لا يعنـي أنَّ الفكـر الموضوعـي والعلمـي، جـاء لهـذا السـبب. إن الاقتصـار علـى هـذا الـرأي فـي محاولـة فهـم نشـوء الفكـر الموضوعـي والعلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، يشـير إلـى عجـز فـي فهـم هـذه المسـألة.

# ب- الإجابات حول البحث العلمي وتعدد أنواعه

أولاً: باسم البحث العلمي، نجد في كثير من الكتب التي تتحدّث عن البحث العلمي والمناهج، في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجموعة من الإجابات حول ماهية البحث العلمي ومعناه ومفهومه:

١- البحث العلمي هو أسلوب منظم في جمع المعلومات الموثوق بها وتدوين الملاحظات والتحليل الموضوعي لتلك المعلومات، باتباع أساليب ومناهج علمية محددة بغية التحقق من صحتها أو تعديلها أو إضافة الجديد إليها، ومن ثم التوصل إلى بعض القوانين والنظريات والتنبؤ بحدوث مثل هذه الظواهر والتحكم في أسبابها، كما هو الوسيلة التي يمكن بوساطتها الوصول إلى حلّ مشكلة محدّدة. يعتمد البحث العلمي على الطريقة العلمية، وهي تعتمد على الأساليب المنظمة والموضوعية في الملاحظة، وتسجيل المعلومات، ووصف الأحداث وتكوين الفرضيات.

٢ـ يُعـرَّف مفهـوم البحـث العلمـي بأنـه المحاولـة الناقـدة التـي تحـاول الوصـول إلـى حـلّ مشـكلة إنسـانية معينـة تـؤرق الإنسـان وتحيـره.

٣ـ البحـث العلمـي هـو تفسـير لحقيقـة مـا باسـتخدام عبـارات واقعيـة تطبّـق بقوانيـن عامـة توجـد فـي المجتمـع.

٤ـ البحــث العلمــي، مجموعــة مــن الخطــوات المنتظمــة والمدروســة، تُبنـى علـى معلومـات تجمـع حـول مشـكلة معينـة، وتخضـع للفحـص والتدقيـق، وذلـك لحـل المشـكلة.

٥ـ البحــث العلمــي فكــر منظــم يقــوم بــه شــخص يدعــى (الباحــث)؛ للوصــول إلــى الحقائــق لحــل قضيــة تُســمّى (موضــوع البحــث)، إذ يتبــع طريقــة علميــة تســمى (منهــج البحــث)؛ ليصــل إلــى حلــول تُســمّى (نتائــج البحــث).

٦ـ يُعـرَّف بأنـه طريقـة فـي التفكيـر، وأسـلوب فـي النظـر إلـى الوقائـع، يصبـح معهـا معنـى المعطيـات التـي يتـم جمعهـا واضحـاً فـي الذهـن.

٧ـ هــو تقــصٍّ أو فحــص دقيــق لاكتشــاف معلومــات أو علاقــات جديــدة ونمــو للمعرفــة الحاليــة والتحقــق منهــا.

٨ـ ينــزل الباحــث إلــى أرض الواقــع المجتمعــي فيدرســه، وهــذا هــو البحــث العلمــي.

٩ـ ينـزل الباحـث إلـى أرض الواقـع المجتمعي ويمـارس تقنيات الاسـتمارة أو المقابلـة أو العينـة أو غيرهـا، وهـذا هـو البحـث العلمي.

١٠ـ ينــزل الباحــث إلــى أرض الواقــع المجتمعــي، ويمــارس التحقيــق الاجتماعــي بالعينــة، مـع كلّ المراحـل والمحطـات والتقنيـات التـي يتضمّنهـا، ومـع التركيـب والإدمـاج الخـاص بينهـا، مـن التوثيـق إلـى تحديــد الموضــوع والإشــكالية والفرضيــة والاســتمارة والمقابلــة، وجـداول اسـتخلاص النتائـج وتحليـل النتائـج وكتابـة التقريـر النهائـي وهــذا هــو البحــث العلمــي.

بغـض النظـر عـن كيفيـة اسـتعمال كلمـة أو مفهـوم بحـث فإنهـا جوهريـاً تعنـي الشـيء نفسـه: محاولـة لاكتشـاف شـيء[١]، أو معرفـة مـا، وهـذا الأمـر نقـوم بـه كل يـوم كأنـاس عاديـن، الأمـر المهـم هنـا هـو كيـف نبحـث ومـا هـي طرائـق بحثنـا؟

يمكــن أن يكــون البحــث عاديــاً أو عمليــاً، البحــث العلمــي يمكــن أن يكــون مؤسســياً فيتبــع الباحــث إجــراءات معرّفــة جــداً وصارمــة،

(١) ويمر روجر، دومينيك جوزيف، مدخل إلى مناهج البحث الإعلامي، ترجمة صالح أبو إصبع وفاروق منصور، المنظمة العربية للترجمة، البصرة وبيروت، حزيران ٢٠١٣، ص ٢٣.

وعـدم وجـود إجـراءات صارمـة، دقيقـة فـي البحـث غيـر المؤسسـي لا يعنـي أنَّ هـذا الأسـلوب غيـر صحيـح، كمـا أنَّ اسـتخدام الإجـراءات الدقيقـة الصارمـة لا يجعـل البحـث المؤسسـي حتمـاً صحيحـاً. كلا الإجراءيـن قـد يكـون جيـداً وقـد يكـون سـيئاً، الأمـر يعتمـد علـى كيفيـة إجـراء البحـث[1].

إن اتبـاع مناهـج البحـث بشـكل أفضـل يعتبـر الطريقـة الفضلـى للحصـول علـى بحـث علمـي صحيـح نسـبياً، بدرجـة عاليـة.

بالعـودة إلـى منطلـق الـكلام، نحـن كأنـاس عادييـن، كلّ يـوم نقـوم بعـدد مـن الأبحـاث، ضمـن ظـروف الحيـاة اليوميـة التـي نعيـش. هـذه الأبحـاث قـد تبـدو لنـا جميعـاً أنهـا تلقائيـة وبديهيـة لأننـا فـي كلّ أحوالنـا نحتـاج إلـى اسـتخدام تقنيـات البحـث لنحصـل علـى مـا نريـد فـي دورة حيـاة تطـول فيهـا القائمـة. إلّا أنّ المسـألة أبعـد مـن ذلـك، إنّنـا عندمـا نقـرر البحـث عـن شـيء مـا مثـل أي مـن الملابـس نريـد أن نرتـدي؟ أو للقيـام بعمـل مـا أو زيـارة مـا ينبغـي أن نحـدد الملابـس المناسـبة، فمـاذا نفعـل؟

إننـا نضـع تصميمـاً لمـا نريـد أن نقـوم بـه، يحـدد لنـا كيـف نعيـن الملابـس ونختارهـا ومـا هـي المعاييـر وكيـف نهيئهـا الـخ... ربمـا

(١) م. ن ص ٢٤.

تطلب منا الأمر القيام بعدد من الإجراءات، للوصول إلى النتيجة المتوخاة، في الجوهر نصبح جميعاً باحثين بالفعل.

بساطة هذا الكلام تطرح علينا السؤال التالي إذا كنا بهذه الحال جميعاً باحثين، لماذا إذاً البحث العلمي أو هل كان بالإمكان التوصل إلى ما توصلنا إليه بدون بحث علمي؟

الإجابة المرتجاة، هي أنَّ البحث العلمي حاجة ملحة من أجل تنظيم عمليات التطور وتسريعها وتوفيرها، وهو مختلف عن البحث العادي، إنه عمل متخصص، علة وجوده الحاجة إلى المعرفة الدقيقة والمنظمة. ولمجرد أن تكون الحاجة إلى المعرفة الدقيقة والمنظمة موجودة فإن البحث العلمي لا بدّ منه، وإن سؤال لماذا! وكيف؟ واقع لا محال.

منذ أن ظهرت الحاجة إلى المعرفة الدقيقة والمنظمة، واعتمد التراكم لإشباع الحاجة وتفعيل نتائجها في البناء الحضاري الإنساني، وضعت معادلة الزمان والمكان، متى وأين؟ نبحث، بوصفهما الإحداثيتين اللتين تنتظم بهما كل الحوادث والموجودات. قبل الاستمرار في الحديث ينبغي أن نلتفت إلى أنَّ الزمان والمكان سابقان لوجود الإنسان وفعله وبالتالي، فإنه كان من المستحيل تجاهلهما في العمليات البحثية العلمية، مثلما لا يمكن تجاهلهما ولم يحدث قط في العمليات البحثية العادية. إنّ الموضوعية تقتضي أن ننظر إلى الموضوع في زمانه ومكانه،

وسـائر معطياتـه، وليـس نظـرة إطلاقيـة، وهـذه مسـألة حيويـة فـي البحـث العلمـي.

ولعـل هـذه النقطـة تعتبـر أساسـاً أوليـاً لوجـود البحـث العلمـي، إذ بـدون الالتفـات إلـى أهميـة الزمـان والمـكان، لا يمكـن الالتفـات إلـى مواضيـع البحـث، فـلا يوجـد موضـوع خـارج هاتيـن الإحداثيتيـن فبهمـا تحـدث الأمـور، وهمـا تـكادان تكونـان مندمجتيـن فـي كل الموضوعـات، أو بالأحـرى همـا متّحدتـان بـكلّ الموضوعـات.

هـذه المسألة الحتميـة الأولـى التـي ينبغـي أن نأخـذ بهـا فـي البحـث العلمـي فـي العلـوم الإنسـانية، فيمـا سـائر الأشـياء هـي نسـبية ومتغيـرة، وخاضعـة للتبـدل والتغيـر بفعـل سـيرورة الزمـن، الـذي يواصـل تعاقبـه بـلا توقـف.

ثانياً: أنواع البحث العلمي

## I- في العلوم الطبيعية التطبيقية

تتعـدّد التقسـيمات التـي علـى أساسـها يمكـن التمييـز بيـن أنـواع البحـث العلمـي، ومـن هـذه التقسـيمات مـا يلـي:

١ـ تقسيم البحوث منهجياً حسب الهدف منها:

أ- بحـوث نظريـة (pure research): وهـي البحـوث التـي تهـدف إلـى الوصـول إلـى النظريـات والحقائـق والقوانيـن العلميـة، التـي تسـاهم

في نمو المعرفة العلمية، وتحقيق فهم أشمل وأوضح وأعمق لها بصرف النظر عن الاهتمام بالتطبيقات العلمية لهذه المعرفة.

ب- بحوث تطبيقية (Applied research): ويكون الغرض منها الأساسي والمباشر، تطبيق المعرفة العلمية المتوافرة، أو التوصل إلى معرفة لها قيمتها وفائدتها العلمية، في حل بعض المشكلات الآنية الملحة. هذا النوع من البحوث، تكمن قيمته في قدرته على حلّ المشكلات الميدانية وتطوير أساليب العمل وإنتاجيته في المجالات التطبيقية، كالصحة والزراعة والصناعة...الخ.

٢- تقسيم البحوث وفقاً لاستخدامها أو حسب الأسلوب:

أ- بحوث وصفية (Descriptive research): وتهدف إلى وصف ظواهر أو أحداث معينة، وجمع الحقائق والمعلومات عنها، ووصف الظروف الخاصة بها، وتقرير حالتها، كما هي في الواقع، كأن يبحث العلماء في الأعاصير والظواهر الكونية وغيرها. في كثير من الحالات لا تقف هذه البحوث عند حدّ الوصف أو التشخيص الوصفي، وإنما تهتم أيضاً، بتقرير ما ينبغي أن تكون عليه الظواهر أو الأحداث التي يتناولها البحث، وذلك في ضوء قيم أو معايير معينة، واقتراح الخطوات أو الأساليب الواجب إتباعها.

ب- بحوث تاريخية (Historical research): لهذه البحوث

أيضاً طبيعة وصفية، إذ إنها تصف الأحداث وتسجل الوقائع التي جرت في ما مضى من الزمن، إلّا أنَّ ما يميزها من البحوث الوصفية، عدم توقفها عند مجرد الوصف والتأريخ لمعرفة الماضي وحسب، بل ما تتضمنه من تحليل وتفسير للماضي من أجل اكتشاف تعميمات تساعد على فهم الحاضر، والتنبؤ بالمستقبل.

يركز البحث التاريخي على التغيّر والتطوّر في الأفكار والاتجاهات والممارسات في حركة الطبيعة ومكوناتها، كما في ممارسات الأفراد والجماعات.

ج- بحوث تجريبية (Experimental research): تجري هذه البحوث في الميدان أو في المختبرات، وعملياً في المجال الذي تحكمه الظواهر المحسوسة، مثل الكيمياء والفلك وغيرهما، وهي تعتمد المنهج التجريبي الذي يعتمد على الملاحظة الحسية وعلى العمل والتجربة والمختبر، وعلى فرض الفروض والتحقق من صحتها أو عدم صحتها، إلّا أنَّ ذلك لا يعني أن يقتصر العمل هنا على المنهج التجريبي، إذ إن هذه العلوم تعتمد أيضاً على المنهج الاستنباطي أو المنهج العقلي الاستنباطي الرياضي.

٣- تقسيم آخر يميل إليه العديد من العلماء:

أ- البحث العلمي الكامل (Complete research): وهو النوع من الأبحاث التي ترمي إلى حل المشاكل والمواضيع حلاً

علمياً شاملاً يحيط بكل الجوانب والحيثيات المرتبطة بالمشكلة موضوع البحث.

ب- البحث العلمي غير الكامل (Incomplete research): وهو عبارة عن مقالات علمية، الغرض منها إيصال معلومات سريعة إلى القارئ حول موضوع محدد.

ج- البحث التنقيبي الاستكشافي (Dscovery research): يهتم هذا النوع من البحوث بالكشف عن الحقائق بواسطة إجراءات معينة واختبارات علمية تقنية، والباحث هنا غير مطالب بالوصول إلى نتائج يمكن تعميمها، وإنما هو مطالب بالتأكيد على صحتها ودقتها.

د- البحث الاستطلاعي (Exploratory research): تعمل هذه البحوث على مشكلة بحث غير محددة المعالم، وهي تمثل اللبنة الأولى للدراسات الميدانية. يكمن التركيز الأساسي لمثل هذه الدراسات على اكتشاف الأفكار والآراء المتباينة، وتساعد على فهم المشكلة المدروسة في البحث، وهي تعتمد أساساً على قياس الرأي العام.

هـ- البحث التفسيري النقدي (Criticle research): وهو عملياً بحث مكمّل للبحث الاكتشافي، فهو يهتم بالوصول إلى نتيجة معينة عن طريق استعمال المنطق والأفكار، فهو يهتم بتحليل المعلومات، وكيفية معالجة المشكلة.

٤- تقسيم آخر ينظر إليه:

أ- البحـوث الحتميـة (Inevitable research): وهـي بحـوث فـي الفيزيـاء والرياضيـات وعلـم الأحيـاء، وغيرهـا، وتعمـل علـى تحقيـق تقـدم تكنولوجـي ومنافـع اقتصادية.

ب- البحـــوث التطبيقيـــة (Applied research): وهـــي تخـــدم خطـــط التنميـة الاقتصاديـة، وتقـوم بتطويـر أسـاليب العمـل والإنتاجيـة.

ج- البحـوث والتطويـر (Researchand Developement): وتهـدف إلـى نقـل التكنولوجيـا المعاصـرة وتطويعهـا وتطويرهـا.

فـي المحصلـة، أجمـع علمـاء الطبيعـة بدايـة علـى تـدرج خطـوات البحـث العلمـي: ملاحظـة، تعميـم اسـتقرائي؛ فكـرة، تحقـق مـن الفكـرة، برهــان أو دحــض، معرفــة علميــة. واعتبــرت «النظريــة العلميــة مجــرد تعميمــات اســتقرائية، خصوصــاً أنَّ هــذا الاعتبــار ملائــم تمامــاً للفيزيــاء الكلاســيكية، وهــي تتعامــل مــع عالَــمٍ فيزيائــي كل شــيء فيــه قابــل للملاحظــة الحســية، فمــا أيســر أن نلاحــظ ثــم نعمــم. لــذا ســاد فــي المرحلــة الأولــى مــن فلســفة العلــم هــذا الاتجــاه التبريــري اللاتاريخــي، والمفــرط فــي الارتــكاز علــى الاســتقرار بصورتــه التقليديــة التــي تصــر علــى البــدء بالملاحظــة. وحيــن أتــى العــام ١٨٥٠م. كان هــذا الاتجــاه

مصوغاً جيداً بفضل جون ستيوارت مل وكتابه «نسق المنطق»، وسار خلف مل جمع غفير من فلاسفة العلم»[1].

في مرحلة لاحقة مع كلود برنارد انفرط هذا الإجماع، بعد أن «ميز كلود برنارد تمييزاً قاطعاً بين الملاحظة والتجربة، إن الملاحظة أمبريقية، وهي تمهيدية بسيطة، أما التجربة فهي موجهة في إطار محدد ومسلحة بالأجهزة المعملية الدقيقة... إذاً الفرق الكبير بين الملاحظة الأمبريقية والتجربة يعود إلى الفكرة... يشدد برنارد على أهمية الفكرة، والفكرة يراها أسبق من التجريب...»[2].

مع انفراط إجماع العلماء، تحوّلت العلاقة بين الفكرة والملاحظة إلى إشكالية رئيسة. في القرن العشرين تحوّلت نظرية البدء بالفكرة إلى بديهية من بديهيات العلم، والمنهج التجريبي في القرن العشرين هو المنهج الذي يبدأ بالفكرة.

«صيغت نظرية المنهج التجريبي البادئ بالفكرة فيما يعرف بالمنهج الفرضي الاستنباطي (Hypotheticap deatuctive)،

(١) الخولي، د. يمنى طريف، فلسفة العلم في القرن العشرين – الأصول، الحصاد، الآفاق المستقبلية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى، كانون الثاني ٢٠٠٠ – ضمن سلسلة «عالم المعرفة» العدد رقم ٢٦٤ – ص ١٣٧.

(٢) م.ن.، ص ١٥٠.

ويبدأ بفرض صوري عام لا يشتقّ من الخبرة، ولا يخضع هو نفسه للتحقيق التجريبي المباشر، فيلجأ الباحث إلى الاستنباط كي يستنبط منطقياً ورياضياً النتائج الجزئية التي تلزم عنه، وهنا يأتي دور التجريب ودور الملاحظة...»[١].

في النصف الثاني من القرن العشرين، انطلقت ثورة الفيزياء الكبرى، ونظرية النسبية، وثورة الرياضيات الحديثة، والثورة الرقمية، وانتقلت العلوم الطبيعية إلى مرحلة جديدة في العلاقة بين الفكرة والملاحظة، فتبددت الأوهام في ضوء ثورة النسبية، وثورة الفيزياء «وأصبح العلم الاختباري التجريبي يتعامل مع كيانات غير قابلة للملاحظة أصلاً، فلا يمكن رصد الجسيمات الذرية، يمكن فقط رصد آثارها على الأجهزة المعملية، ما يعني أنَّ التجريب يشترط قبلاً فكرة نصمم التجربة والآثار المتوقعة على أساسها، وإلا سيدخل العالِم إلى معمله ولا يجد شيئاً يفعله»[٢].

## II- في العلوم الإنسانية والاجتماعية

منذ انطلاق العلوم الإنسانية والاجتماعية في القرن التاسع عشر، جُعل الإنسان موضوعاً للعلم والمعرفة، وساد الأمل والحلم

(١) م.ن.، ص ١٦٥.

(٢) م.ن.، ص ١٧٢.

الأسطوري، بتحرر الإنسان من استلاباته، وخواطره «ومن كل المحددات التي لم يكن متحكماً فيها، ويستطيع بفضل هذه المعرفة التي اكتسبها عن نفسه أن يصبح من جديد، أو يصبح لأول مرة، سيد نفسه ومالكها، وبعبارة أخرى، لقد جُعل الإنسان موضوعاً للمعرفة كي يصير بإمكانه أن يصبح ذاتاً فاعلة لحريته نفسها ولوجوده نفسه»[1].

ما الذي حدث؟ منذ القرن التاسع عشر إلى اليوم، لم يُعثر على هذا الإنسان، أو هذه الطبيعة الإنسانية، المتحرّرة من كلّ الخواطر والأوهام والمحددات المعلوم منها وغير المعلوم، وكشفت الدراسات التحليلية التي أجريت في مجالات متعدّدة، منها ما أُجري حول ظواهر الجنون مثلاً، أنّ اللاوعي لدى الإنسان يسير بمقتضى أواليات، بمعنى أنَّ هناك أوّاليات تؤثر في الإنسان وفي تفكيره وسلوكه، وهذا ما سميناه سابقاً (وعي قبلي). هذه الحال ليس لها علاقة البتة بما كان الناس يتوقعونه، من الوصول إلى إنسان منعتق من القبليات أو الأواليات كافة، الوصول إلى ماهية إنسانية بحتة، «قد تكون الرغبة في فصل الإنساني عن «الإلهي وتحديد موقع الإنسان في الوجود، وراء محاولات الانتقال من الإلهيات

(١) La quizaine litteraire, n. 5, mai 1966.

إلى الإنسانيات، ومواجهة الفكر الديني» «بالفكر العلمي» أو من علم آلهة (theologie) إلى علم الناس (anthropologie)(١)، تلك الرغبة في الانتقال أو الضرورة في الانتقال (وهي حدثت في مرحلة توله الإنسان بالغيبيات، واشتهائه الماديات في آن) ساهمت في الدفع باتجاه تعدد البحوث في العلوم الإنسانية والاجتماعية وتوسع مجالاتها ونظرياتها ومناهجها، واختلاف طرائق وتقنيات وأدوات جمع المعلومات بصورة عامة.

لكن الشكوى بقيت في موطن الإنسانية والاجتماعية، في مدارسها ولدى علمائها، من عدم قدرة هذه العلوم على تحقيق نجاحات باهرة في البحث عن الإنسان أو في الإنسان، والوصول إلى الإنسان الذي كان ينشده الحلم الأسطوري.

بالرغم من اختلاف وتعدّد أنواع البحوث العلمية في العلوم الإنسانية والاجتماعية وانقسامها بين نظري وتطبيقي، إلا أنَّ هذه البحوث اندرجت وفق الترتيب الآتي:

١- البحوث الاستطلاعية وعرفت أيضاً بالبحوث الكشفية (exploratory research) وتستهدف التعرّف إلى الظاهرة أو المشكلة المحددة بغية اكتشاف حقائق أو أفكار جديدة، تساعد

(١) Hassan hamali: théologie et anthropologie, in renaissance du monde. Arabe, colloque, Genève, 1975

علـى تحديـد أبعـاد مشـكلة البحـث، ويمكـن لهـا أن تسـتهدف الإجابـة عـن التسـاؤلات أو الفـروض المسـبقة التـي يضعهـا الباحـث.

٢- البحـوث الوصفيـة (descreptive research): يشـتمل هـذا النـوع مـن البحـوث علـى دراسـة الظواهـر، والمواقـف، والمجموعـات، وهـي لا تسـتلزم وجـود فـروض مسـبقة، أو تسـاؤل مسـبق يرتبـط بتوقـع حـدوث الظواهـر أو تحديـد أسـباب تكرارهـا فـي الواقـع، وهـذا يعنـي أنّ مهمـة الباحـث أولاً هـي وصـف الواقـع بـدون أفـكار مسبقة، إلا أنَّ ذلـك لا يمنـع الباحـث مـن التركيـز علـى جانـب أو جوانـب معينـة مـن موضـوع الدراسـة، بغيـة توضيحهـا، لكـن مهمتـه بالأسـاس هـي وصـف وتدويـن البيانـات وجمـع المعطيـات مـن الحقـل الميدانـي أو مـن السـجلات والوثائـق أو مـن الأشـخاص المعنييـن بالموضـوع... الـخ.

يمكـن للباحـث أن يسـتخدم فـي دراسـته الأسـلوب الكيفـي أو الكمّي. الأسـلوب الكيفـي يصـف الظاهـرة ويوضـح خصائصهـا، أمـا الأسـلوب الكمـي فإنـه يسـتخدم الأرقـام فـي عمليـات الوصـف، وكذلـك الجـداول، ولهـذا فـإن بعـض الباحثيـن يشـيرون إلـى الدراسـة الوصفيـة بأنهـا دراسـة إحصائيـة.

بدايـة اسـتخدام الدراسـة الوصفيـة كانـت فـي القـرن الثامـن عشـر، حيـن أجريـت دراسـة لوصـف حالـة السـجون البريطانيـة، ومقارنتهـا بالسـجون الفرنسـية والألمانيـة، ونشـطت هـذه الدراسـات إجمـالاً

خــلال القــرن التاســع عشــر مــع فريدريــك لوبــلاي (١٨٠٦-١٨٨٢) بإجــراء دراســات تصــف الحالــة الاقتصاديــة والاجتماعيــة للعمــال فــي فرنســا، مســتخدماً فــي ذلــك المقابــلات والاســتمارات. وخــلال القــرن العشــرين تطــوّرت هــذه الدراســات بشــكل واســع مــع دخــول الحاســوب مجــال البحــوث العلميــة.

تبـرز أهميـة الدراسـات الوصفيـة فـي شـموليتها، وإمكانية اسـتخدامها فـي العديـد مـن الميادين وفـروع العلـوم الإنسـانية والطبيعيـة. ولا يقتصـر الأسـلوب الوصفـي علـى جمـع البيانـات حـول ظاهـرة معينـة بـل يتعـدّى ذلـك إلـى تصنيفهـا وتنظيمهـا بهـدف فهمهـا، ومـن ثـم التوصـل إلـى اسـتنتاجات وتعميمـات.

وفقاً لذلك فإن الدراسة الوصفية تجري على مرحلتين:

الأولـى: الاستكشـاف وجمـع البيانـات: (explorative and formulative stage).

الثانيـة: مرحلـة التشـخيص والوصـف المعمّـق والتصنيـف (diagnostic and intensive stage).

ترتبـط كل مـن المرحلتيـن بالأخـرى. فـي التعبيـر عـن الاسـتنتاجات والتوصـل إليهـا[1].

(١) محمّد علي محمّد: علم الاجتماع والمنهج العلمي، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٦ ص ١٨٩.

٣- البحوث التشخيصية (diagnostic research) أو البحوث التفسيرية:

وهـي البحـوث التـي تعمـل علـى اختبـار الفـروض السـببية، وتعـرض خصائـص الظاهـرة كميـاً وكيفيـاً بصـورة محكمـة ودقيقـة، يسـعى مـن خلالهـا الباحـث إلـى تحديـد مـدى وجـود علاقـات سـببية بيـن الظواهـر، وغالبـاً مـا تشـترك مجموعـة مـن العوامـل فـي حـدوث الظاهـرة. تُلخّـص سـمات الدراسـات التشـخيصية بمـا يلـي:

١- تستخدم الوصف الكمّي أو الكيفي.

٢- تهتم بتحديد العوامل المختلفة المؤثرة أو المتأثرة بالظاهرة.

٣- تتضمن فروضاً توضح العلاقة السببية بين الظواهر.

يمكـن القـول أنَّ الدراسـات التشـخيصية أو التفسـيرية أكثـر دقـة وأقـل مرونـة وأكثـر إحكامـاً مـن الدراسـات الاسـتطلاعية والوصفيـة.

خلاصـة القـول، أنَّ البحـوث العلميـة فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة وفـي سـياق اسـتخدام مناهجهـا وتقنياتهـا وأدواتهـا، علـى أنواعهـا، حُسِـمت الأمـور فيهـا منـذ البدايـة لمصلحـة الفكـرة كمحطـة أولـى ينطلـق منهـا البحـث. ولـم نلحـظ نقاشـاً فـي مـا خـص هـذه المسـألة خصوصاً فـي العلـوم الاجتماعيـة، ولـم نقـع علـى تبريـر لوجودهـا أو حـول معناهـا ومغزاهـا والهـدف منهـا، ووظيفتهـا ودورهـا. وحتـى

الاتجـاه التجريبـي لا يرسـم أي علامـة اسـتفهام حـول ضـرورة الفكـرة كمحطـة أولـى فـي البحـث.

وهـذا مـا يسـتدعي السـؤال، لمـاذا هـذا الصمـت؟ إنـه سـؤال الريبـة والشـك، بمـا هدفـت إليـه العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، عندمـا حُسـمت لمصلحـة الفكـرة.

لمـاذا هـذا السـؤال؟ ولمـاذا الشـك؟ لأنَّ النظـر فـي بدايـة النظـام المعرفـي الـذي أنتـج العلـوم الإنسـانية ومناهجهـا، انطلـق أساسـاً مـن مبـدأ العلـة الكافيـة، واندفـع مـن حيـث ديناميتـه الذاتيـة إلـى اقتحـام ميادين جديـدة، فكانـت المعادلـة التاليـة، مـا ينطبـق فـي مـدار العلـوم الطبيعيـة أو العلـوم البحتـة ينطبـق علـى وقائـع العلـوم الإنسـانية، وإلا اختـل مبـدأ العلـة الكافيـة. هـذه مسـألة نجدنـا أمامهـا عندمـا نسـلم بـأنَّ الفكـر البشـري يبـدأ بالبحـث عـن العلـل مباشـرة عندمـا يدخـل فـي مواجهـة مـع مـا يريـد أن يعبّـر عنـه، أو مـا يريـد أن يعـرف عنـه ويكشـفه ويفهمـه... الـخ. فهـو يريـد أن يكـون لأحكامـه أسـاس. فوحدهـا الأحـكام المثبتـة تُعقـل أو توافـق العقـل. لقـد شـهد الفكـر البشـري هـذا البحـث عـن العلـل فـي مختلـف مراحلـه.

فلمـاذا حسـمت الأمـور حـول الفكـرة فـي العلـوم الإنسـانية؟ ولمـاذا تبـدو ثنائيـة الفكـرة والملاحظـة أسـهل بكثيـر فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة منهـا فـي العلـوم الطبيعيـة؟

المسألة هنا ليست شكلية، فنحن أمام خيارين، إما تعميم مبدأ السببية للنفاذ من مدار الطبيعي إلى المدار الإنساني، وإما مبدأ العلة يكون ناقصاً، وهذا الأمر غير ممكن، لماذا؟ لأنَّ مبدأ العلّة الكافية لا يستطيع أن يكون ناقصاً، لأنه بذاته ضروري وشامل.

إذن نحن أمام أمر يكاد يكون حتمياً، لأنه «لا يوجد شيء بدون علة، وإننا نقبل بهذا المبدأ فور استماعنا إليه: إننا لا نجد ما يحكى مباشرة شيئاً مضاداً له، غير أننا لا نجد ما يؤمّن نوعاً من التأمل المخصوص بهذا المبدأ، أي إنه يدخل في عداد الأشياء التي تقوم تلقائياً. هذه الأشياء اللامبالية التي نمرّ بها يومياً، وهكذا نعتقد أنَّ المبدأ كان دائماً معروفاً، وهذا صحيح بوجه ما، وسوف نرى بوضوح أشد كيف أنَّ بعض أصداء هذا المبدأ كانت مدركة، ليس فقط في واقع الأمر بالضرورة، وسوف نرى كيفية هذه الضرورة[1].

لعب مبدأ الضرورة الدور الأساسي هنا، فكانت انطلاقة العلوم الإنسانية والاجتماعية من هذا المبدأ الملازم لمبدأ العلة الكافية. لقد كان الحديث عن مبدأ العلة الكافية في انطلاقة هذه العلوم، مرتبطاً بضرورته واضطراريته، فمن الضروري، أن نكون

(١) مارتن هيدغر، مبدأ العلة، ترجمة د. نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، مجد، الطبعة الأولى، بيروت١٩٩١م. ص ٣٠.

أمـام هــذه العلـوم لضـرورة المواجهــة، هــذه النقطــة الأوليــة، لا يمكــن إزاحــة الفكـر الكنســي بــلا فكـر مواجــه؛ بديـل، يغطّــي النواحــي كافــة، هنـاك ضـرورة لهـذا الفكـر، ولانطلاقتـه، يسـتلزم اسـتكمال المواجهـة تعميـم السـببية العلميــة، اسـتعارتها مــن العلـوم البحتــة وتوظيفهــا فــي الفكــر الجديــد وعلومــه، لمــاذا؟ لأنَّ ذلــك يســهّل عمليــة التحكــم فــي المســار الجديـد والإجهـاز علـى المسـار القديـم (المسـار الكنسـي) أو مسـار الفكـر الكنســي، لأنَّ عمليــة المواجهــة ينبغــي أن تنقـل المجتمـع الإنسـاني مــن وضعيـة عقديـة إلـى وضعيـة أخـرى، وهـذا يحتـاج إلـى الدخـول فـي معركـة أخـرى، وهــي المعركـة ضـد الوعـي، لأنـه معتبـر مـن بقايـا الفكـر الكنسـي، ينبغــي إزالتــه، فـلا بـد مـن أن يتجابـه العلـم والوعـي، بمـا أنَّ العلـم مـن بقايـا الفكـر الكنسـي وهـذا الفكـر كان ضـد العلـم، فـإن الوعـي هـو كذلـك، هـذه مواجهـة حتميـة بينهمـا، العلـم فـي مواجهـة الوعـي الإنسـاني. تطلّـب هـذا الأمـر إيجـاد ثنائيـة تتمثـل فـي الباحـث/ الموضـوع. لمـاذا؟ أولاً لأنَّ المواجهـة بيـن العلـم والوعـي، تعنـي جعـل هـذا الواعـي مسـتهدفاً. فلسـفة الأمـر هنـا تقـول إن الاسـتهداف يحصـل مـن خـلال جعلـه موضوعـاً للبحـث. أمـام هــذه العمليــة، يصبـح بديهيـاً أنَّ الباحــث هــو فــي مقابـل الوعــي، الموضـوع هـو الوعـي وبالتالـي هـو الإنسـان، فنحـن أمـام الباحـث الإنسـان فـي مقابـل الموضـوع الإنسـان. هـذه نقطـة الارتـكاز، لذلـك كانـت الفكـرة

ضروريـة، فكـرة الإنسـاني موضوعـاً للبحـث، إنسـان ينظـر فـي إنسـان، يحتـاج ذلـك إلـى التركيـز علـى الوعـي/ اللاوعـي، إنـه طمـوح نحـو جـب مـا قبـل هـذا النظـام المعرفـي مـن مشـاريع معرفيـة ومنهـا المعرفـة الدينيـة وحتـى المعرفـة السياسـية.

لقـد شـكّل العبـور مـن العلـوم البحتـة إلـى العلـوم الإنسـانية، فتحـاً فـي الميـدان الإنسـاني، ولوحـظ فـي الواقـع الملمـوس لهـذا الميـدان جملـة مـن الصفـات:

- يصعـب الإحاطـة بموضـوع يوجـد فـي شـكل زمنـي متتـالٍ، فهـو دائـم الحـدوث وليـس موضوعـاً حادثـاً، أي إنّ الموضـوع ليـس نتاجـاً وإنمـا سـيرورة.
- ليسـت حـرّة هـذه العلـوم فـي التعامـل مـع الموضـوع (الإنسـان) علـى أنـه مـادة بحتة.
- لا تتمتـع بسـمة الضبـط؛ مـن أولـى ميـزات الظاهـرة الإنسـانية تداخـل العوامـل والتغيـرات فيهـا.
- الظاهـرة فـي تغيّـر مسـتمر ودائـم. وأثنـاء الملاحظـة نفسـها تتغيـر الظواهـر الإنسـانية وتتخـذ اتجاهـاً مغايـراً لوجهتهـا الأولـى.

- يؤدّي إدخال عامل معين إلى تعديل في العوامل الأخرى[1].

إننا نقترب هكذا من القول بأنَّ صدقية العلوم الإنسانية ترتبط، بحركتها البحثية وليس بانتمائها الفكري، وارتباطها واختلاطها بالعلوم البحتة، ومهما يكن من أمر، فإن المسار الذي سلكته تلك العلوم ومدارسها سواء أكانت ماركسية أم هي متأثرة بدوركهايم وفوكو وسارتر وستراوس وغيرهم، أبقاها ملتبسة، رغم ما راكمته من معرفة، وأبقاها مشكوكاً في عمليّتها، لعدم تمتعها بشروط عملية كافية. لقد نشأت مدارس ومذاهب واتجاهات وايديولوجيات تتناسل بعضها من بعض، تحكمها فرضيات تملك حداً من التماسك، وهي تجريبية بقدر ما، تشكل اعتقادات وآراء وسياسات وأخلاقيات، هي باختصار موضوعها الرئيسي هو الإنسان[2]، وأفعاله ونشاطاته وأقواله، لقد سميت المحاولات التي استهدفت دراسة كل ذلك علوماً إنسانية واجتماعية، منفصلة عن العلوم البحتة والعلوم الطبيعية. لقد بتنا أمام علوم جعلت

---

(١) إبراهيم، عبدا لله: علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، المركز الثقافي العربي الطبعة الثانية، بيروت، ٢٠٠٦م. ص ١٩٨.

(٢) راجع: خواجة، د. أحمد، أوهام المؤالفة بين العلوم والإيديولوجيا، مجلة الفكر العربي، العدد ٥٥، كانون الثاني، شباط ١٩٨٩، ص ١٤٤.

موضوعها الاجتماعي داخل المجتمعي. الأفعال والأقوال داخل البنية المجتمعية. الـ«نحن» والـ«أنتم» والـ«هم» موضوعاً للبحث، إنه هو الموضوع الحقيقي، الفكرة الموضوع، فهو تلك الوحدة من الأوضاع والمشاعر والأفكار والأفعال التي يفرضها الاجتماع البشري[١].

(١) Claude rivière, l'objet social, op, cite, P. 248.

# ج- تعدّد مناهج البحث العلمي

هل يوجد تعدّد مناهج أم ماذا؟

شـاع فـي معاجـم اللغـة العربيـة أنَّ المنهـج يعنـي الطريـق البيّـن الواضـح، ففـي تـاج العـروس: «النهـج بفتـح فسـكون: الطريـق الواضـح البيِّـن وهـو النَّهْـج محركـةً أيضـاً؛ قـال أبـو ذُؤيـب: بـه رُجُمـاتٌ بَيْنهـنَّ مَخـارِمٌ... نُهُـوجٌ كَلَبّـاتِ الهَجائِـنِ نِيـحُ وطُـرُقٌ نَهْجَـةٌ: واضحـةٌ المنهَـج بالفتـح. والمِنْهـاجِ بالكسـر وفـي القـرآن الكريـم «لِـكُلٍّ جعَلنـا مِنكُـم شِـرعَةً ومِنهاجـاً». المِنهـاج الطريـق الواضـح.

وفـي لسـان العـرب نهـج طريـقٌ بيّـنٌ واضِـحٌ وهـو النهـج ،قـال أبوكبيـر فأجَزْتُـه بأَقَـلَّ تحسَـبُ أثْـرَهُ نهجـاً أبـان بـذي فريـغٍ تَخْـرَفِ والجمـعُ نَهجـاتٌ ونُهُـجٌ ونُهـوجٌ، قـال أبـو ذؤيـب بـه رُجُمـاتٌ... وطُـرقٌ نَهْجـةٌ وسـبيلٌ مَنْهَـجٌ كَنَهـجِ ومَنْهَـجُ الطريـق وضَحُـه والمنهـاج كالمنهج...الـخ. ممـا ورد فـي مختـار الصحـاح والمعجـم الوسـيط والصحـاح فـي اللغـة، وفـي الكليـات وغيرهـا مـن المعاجـم.

ولفظ كلمة منهج هو ترجمة للكلمة الفرنسية méthode ومثيلاتها في اللغات الأوروبية الأخرى، استعملها أفلاطون بمعنى البحث أو النظر أو المعرفة، واستعملها أرسطو بمعنى بحث، والمعنى الاشتقاقي الأصلي لها يدلّ على الطريق أو الهدف المطلوب.

عملياً لم يأخذ هذا المصطلح معناه الحالي إلّا في المراحل التي بدأ ما يعرف بعصر النهضة الأوروبية، حين ظهر لأول مرة في القرن السادس عشر على يد راموس وزاربيلا ومولينا، بين ١٥٧٨، و١٦٠٩؛ ثم شاع استخدامه في كتابات فرنسيس بيكون في كتابه «واعد المنهج التجريبي» ١٦٢٠م، وفي كتاب ديكارت «مقال في المنهج» ١٦٣٧م. وهما قد عاصرا حركة التحول في العلم الحديث، وكان مصطلح الطريقة أو المنهج يعني بالدرجة الأولى المباحث المنطقية التي تؤدّي إلى حسن السير بالعقل، أو تستكمل النقص الأرسطي الملحوظ، وتؤلف منهج العلوم التجريبية. وبذلك بدأ التحول من النظر في مواد القضايا القياسية، إلى التفكر في مناهج العلوم. ثم جاء أصحاب «منطق بور رويال» عام ١٦٦٢م. فاهتموا بتحديد المنهج بأنه «فنّ التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة، حين نكون جاهلين بها، وإما من أجل البرهنة عليها حين نكون عارفين بها»، وأخذت تظهر

مجموعــة مــن التعريفــات للمنهــج منهــا: تعريــف مادليــن غرافيتــش مثـلاً: هـو مسـار عقلانـي للفكـر مـن أجـل الوصـول إلـى الحقيقـة، أي إنـه مجموعــة عمليــات ذهنيــة، تحليــل وتفســير. (هــل هــذا الــكلام يكفــي؟) فيمـا عنـد دبـل بايـل: هـو مسـار منطقـي، وهـو عمليـات تحليـل هادفـة إلـى جعـل الواقـع قابـلاً للفهـم، وهكـذا تتوالـى التعريفـات التـي كانـت فـي معظمهـا ملتبسـة.

مفهـوم المنهـج هـذا شـيمته شـيمة معظـم المفاهيـم الملتبسـة (حريـة، ثقافـة، جدليـة... الـخ.) قـد يكـون مرسـوماً مـن قبـل بطريقـة تأمليـة مقصـودة، وقـد يكـون نوعـاً مـن السـير الطبيعـي للعقـل لـم تحـدد أصولـه سـابقاً، وهـذا تلقائـي.

نحـن بهـذه الحـال أمـام نوعيـن مـن المنهـج: الأول: تأملـي، والثانـي: تلقائـي.

التبصّـر فـي هذيـن المنهجيـن أو النوعيـن مـن المنهـج، يجعلنـا نقـف أمـام، أو بالأحـرى يقودنـا إلـى التدقيـق فـي مسـألة مهمـة جـداً تتعلّـق بأنمـاط المعرفـة، فـي مبـدأ المعرفـة وكيـف تحصـل، مـا هـو المسـار الـذي سيسـلكه الإنسـان (العـادي أو العالـم) للوصـول إلـى المعرفـة، إذا مـا أخذنـا فـي الاعتبـار أنَّ الإنسـان العـادي أيضـاً باحـث عـن المعرفـة. انطلاقـاً مـن تعـدد الاحتياجـات، ومراتـب الجهـل بالواقـع المعيـش والمحيـط، فـإنّ النزعـة إلـى المعرفـة لـدى الإنسـان تلفتنـا إلـى

أنَّ الإبداعات العلمية التي تحقّقت على مرّ التاريخ، لم تكن بحاجة إلى برمجة بالمعنى الدقيق للكلمة، بقدر ما كانت ترتبط بسلسلة النقلات الحرة التي أمنها العقل البشري والمعرفة بشقيها (القبلي والحصولي).

التعمق أكثر في هذه المسألة يأخذنا إلى البحث في أنماط المعرفة، أي لا بد من طرح سؤال حول أنماط المعرفة، ما هي أنماط المعرفة العلمية (الحصولية)؟

المتعارف عليه أنه يوجد نمطان من المعرفة، إما المعرفة الاستقرائية، وإما المعرفة الاستنباطية. ومنذ القدم اشتغلت العلوم وفق الآتي:

- علوم الرياضيات وعلوم المنطق. تمثل، في طبيعتها وطبيعة موضوعها، المعرفة الاستنباطية.
- العلوم الطبيعية والفيزيائية والإنسانية، تمثل، في طبيعتها وطبيعة موضوعها المعرفة الاستقرائية.

مع ظهور المنهج العلمي المعاصر، سُجّل تقدم ملحوظ للممارسة العلمية بالطرائق التجريبية المميّزة لعلوم «المشاهدة، والاختبار» من دون الرجوع إلى المنطق الأرسطي، الذي وجهت إليه اتهامات عديدة: إنه منطق شكلي، وهو لغوي، وهو منطق غير

منهجي، وشبه جدلي، وغير حركي. هذا النقد لا يعني أنه يستند إلى أنَّ أرسطو قد أهمل الاستقراء، لا، أرسطو قال بأنَّ «إقامة قضية عامة... لا يمكن أن تتم عن طريق الاستنباط، وإنما بالالتجاء إلى الأمثلة الجزئية التي يكمن فيها صدق تلك القضية العامة»[1]. إنما يستند النقد هنا إلى اتجاه أراد أن يأخذ العلم الإنساني نحو طريقة في البحث ملتزمة المنحى الذي اتخذته علوم الفيزياء والطبيعة أكثر.

في هذا الإطار برز الاتجاه التجريبي (استقرائي)، والاتجاه الرياضي (استدلالي)، بدأ الاتجاه الأول مع فرنسيس بيكون، ثم جون ستيوارت مل، وصولاً إلى كلود برنارد، أما الاتجاه الثاني، فقد بدأ مع ديكارت وتطور مع حركة الاكسوماتيك الحديث (حركة النقد الداخلي في الهندسة)، وصولاً إلى برتراند راسل.

- المنهج التجريبي: هو منهج العلوم الطبيعية، ومنهج العلوم الإنسانية أيضاً، ويعتمد الاستقراء.

- المنهج العلمي الرياضي: هو استدلالي، تطور مع ديكارت الذي وضع الهندسة التحليلية، معتبراً العلم الرياضي العلم الرابط

---

(١) د. فضل الله، مهدي، مدخل إلى المنطق (المنطق التقليدي) بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٥م. ط ٣. ص ٢٤٥.

بين جميع العلوم، ومميزاً بين الاستدلالي والحدسي، بطريقة منهجية تُعتبر أساس تطور العلم الرياضي المعاصر[1].

كِلا المنهجين منبثقان في الأساس من منهجي الاستقراء والاستنباط، إلَّا أنَّ عملية تطويرهما ارتبطت بالتطور والتبدل الذي طرأ على واقع الحياة الإنسانية، وبالتالي أباحت ضرورات تطور العلوم، المرتبطة بضرورات الثورة والنهضة، وما عرف بالتنوير، إمكانية تطوير مناهج العلوم، وبتنا أمام المنهج العلمي المعاصر.

يبدو رغم كل المظاهر أنه ليس من السهل على الإنسان معالجة مسائل المعرفة، وطرائق الحصول عليها. لقد استطاع الفلاسفة والعلماء التحدّث عدة قرون، عن العلم والمعرفة انطلاقاً من الحدس ومن التجربة، وجرى التسليم أنَّ امتلاك الإنسان للمعرفة يأتي من طريق الاستقراء أو من طريق الاستنباط. ودار النقاش طويلاً حول أي من المعرفتين هي الأصح، المعرفة بالاستقراء أم المعرفة بالاستنباط؟ ومع ذلك، فإن جواباً قطعياً عن هذا السؤال والنقاشات المتعلقة به لم تحسمه البشرية؛ الصعوبة في الإجابة القطعية أو الحاسمة التي يمكن أن تنهي النقاش ويجري

---

(١) الفندي، د. محمّد ثابت، فلسفة الرياضة، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٦٩م. ط١.

التسليم بها، لم تكن في يوم من الأيام أعسر مما هي عليه الآن، بالرغم مما طرأ على العلوم من تطوّر في ميادين الطبيعة والرياضة والإنسانيات. وبقي مشكل آخر يوازي هذا الأمر أهمية هو المعرفة، مدى دقتها وصدقيتها، وأحقيّتها. أن يشكل تاريخ المعرفة وطرائق الحصول عليها أو كيفية الحصول عليها جزءاً لا ينفصل عن المعرفة نفسها، وهذا يعني أنَّ العلوم والمعارف التي جرى تحصيلها بأي من الطرائق وتحت أي من العناوين في المراحل التاريخية السابقة، سواء بوساطة الاستقراء أو الاستنباط وفق المنطق الصوري أو غيره، وسواء تحت عنوان العلم أو الفلسفة أو الأسطورة أو غير ذلك، في ميادين الطبيعة والرياضيات والإنسانيات، لم تسقط مشروعيتها أمام العلم الحديث، ومناهج العلوم المعاصرة، أو التمثلات التي يتمثل بها ويتخفّى بها الاستقراء والاستنباط، مما يعرف بالمنهج التجريبي، والوظائفي، والعقلاني، والتحليلي، والوضعي، والكمي... الخ.

بالتأكيد، يمكن أن نكون أمام عملية النقد، وعلى هذا الأساس فإن ما نراه اليوم من ماهية للعلم الحديث وطرائق تحصيله، لم يكن يراه من سبقنا في ما مضى من القرون، تبعاً لاختلاف الأزمان والتطوّر الذي شهدته. فهل تنجح محاولات تقديم البديل لطرائق المعرفة والعلم، وتقديمها على أساس أنّها الوحيدة التي تمكّن

الإنسـان مـن الاكتشـاف والتطـور والتقـدّم وتحصيـل المعرفـة...؟ الـخ. سـيضعنا ذلـك أمـام مشـكلة وجوديـة، تتمثّـل فـي وجـود العلـم نفسـه. وما هـو موجـود بـه أو بدونـه. لمـاذا؟ لأننـا هنـا أمـام حقيقـة قـوة الوجـود الإنسـاني. هـل يتحقـق العلـم دون تحقـق قـوة الإنسـاني، أو تحقـق الإنسـاني؟ بالمعنـى الـذي يعطـي الإنسـان مكانـة أعلـى أو فـوق مكانـة الموجـودات الأخـرى أو يسـند إليـه عمليـات إنتـاج العلـم والتقـدّم والتطـوّر والتغيّـر والتبـدّل. مهمـا يكـن مـن أمـر، فـإن المعرفـة سـواء جـرى تحصيلها بواسـطة الاسـتقراء أو بوسـاطة الاسـتنباط، أو مـن خـلال الأشـكال التـي يتخذهـا ويتخفّـى بهـا الاسـتقراء، (التجريـب والعقلانيـة والوصفيـة... الـخ.)، فإنها معرفـة الإنسـان العـارف العالـم، إنهـا معرفـة العاقـل وصاحـب العقـل، معرفـة الإنسـاني الـذي لا يمكـن اسـتبعاده، مهمـا كان، وتحـت أي مبـرر. لقـد كان الإنسـان ولا يـزال فاعـلاً قـادراً علـى الحضـور والتعبيـر والوعـي.

كلامنـا هـذا لا يعنـي بحـال مـن الأحـوال، مـا ذهـب إليـه ديـكارت. إنَّ قـوة الحضـور الإنسـاني وتحقـق وجـوده بوسـاطة العقـل إنّمـا أمَّنـت للإنسـان أن يتمايـز، وأمّنـت لـه التطـور الاجتماعـي والرقـي المعرفـي والحضـاري هـذا مـا نسـعى إلـى قولـه. لقـد ذهـب ديـكارت إلـى القـول بـأنَّ الوجـود الإنسـاني لـم يعـد بعـد الآن مضمونـاً مـن قبـل اللـه، بـل بتوافـر الفكـر الواضـح، فأنـا أفكـر إذاً أنـا موجـود.

صحيح أنَّ الإنسان قد استفاد من امتلاكه للعقل، فتسلطن على الكون وموجوداته، إلّا أنَّ ذلك لم يحد من هلعه وخوفه، وبمعنى أصح لم يتخلص من الهلع والخوف اللذين يشعر بهما باستمرار. لقد مكّن التحكم الإنساني في العديد من الموجودات، تأمين وجوده، وتقليص دائرة الخطر، وذلك بوساطة الكشف العلمي، إلّا أنّ قوة العلم وقوّة العقل لم تمكّنه من اكتشاف أسرار جمة في هذا الكون ولم تمكّنه أيضاً من التحكم في العوامل الطبيعية الأكثر تأثيراً فيه. صحيح أنه عرف الكثير عنها، إنما رغم التقدم العلمي الذي توصل إليه، خصوصاً في القرن الأخير، بقي جاهلاً كيفية تأمين نفسه من الهلع والخوف معلومي المصدر أو مجهولي المصدر. وبالتالي فإن وجوده لم يتحقّق بقوّة عقله وعلمه، ولا يزال هذا الوجود غير مضمون، وبالتالي فإن الحضور الإنساني أصلاً، غير متحقق لولا الوجود الإلهي وما يؤمّنه اللّه للإنسان.

لماذا نقول هذا الكلام؟

أولاً: لأننا نجد أن ما حققه الإنسان بوساطة العلم والمعرفة من تقدم وتطور خصوصاً في القرن الأخير (٢١) إنما كان بامتلاكه العقل وقوة حضوره في الحياة الإنسانية، سواء كان هناك دور للوعي أو غير الوعي أو لم يكن.

ثانياً: لأنَّ العقل هو الذي أباح للإنسان التعرف إلى كيفية

البحث عن المعرفة والعلم، وتحديد مناهج البحث، والتي تحددت أصلاً بالاستقراء والاستنباط، وأنَّ هذا العقل هو الذي يسعى إلى الاحتيال العلمي، ويحاول إقناعنا بمناهج متعددة هي في حقيقتها أشكال يتخفى خلفها أو بها الاستقراء الأكثر هيمنة في العلوم الإنسانية على ما يقتنع بذلك الإنسانيون، والاستنباط الذي يبسط سلطانه أيضاً في هذه العلوم متستراً حيناً وغير متستر أحياناً أخرى.

إنّ استكمال هيمنة الفكر الموضوعي، المنطلق من المبدأ الملحاح، مبدأ العلة، يحتاج إلى استكمال فرض السلطة على مناهج البحث ومركبات التفكير الإنساني، إذ لم يعد كافياً العمل وفق مبدأ الضرورة، بعدما مرّت قرون على إزاحة الفكر الكنسي الذي كان مهيمناً على نواحي الحياة الإنسانية كافة، وأصلاً، لم تتم إزاحة هذا الفكر كلياً، إلّا من بعض النواحي، وبقي متغلغلاً في نواحٍ أخرى، وإنّ التصدي العلمي لهذا الفكر، انطلق أصلاً، من نقطة أساسية يقول بها الفكر الديني وهي اللحمة، لكن كان على الفكر العلمي أن يذهب إلى ضرب مسألة الوعي الإنساني، التي يعطيها الفكر الديني دوراً، ليجري انفصاماً تاماً بين الإنسان والموجودات الأخرى، ويعطي دوراً أول للإنساني في تحقيق ضمانة استمرارية وجوده، بعيداً عن اللّه. (نقل التبعية من سلطة الكنيسة إلى سلطة أخرى).

فـي الحصيلـة، تعـدد المناهـج مرتبـط بتمكّـن الإنسـان مـن تحقيـق هـذا التعـدد. لقـد حقّـق إمكانيـة وجـود المنهـج الاسـتقرائي والاسـتنباطي والمنطـق، وحقّـق تطـوراً مـا فـي هـذا السـياق، لكنـه إلـى الآن لا يشـعرنا مـا يُقـال حـول مناهـج «التجريـب، والعقلانيـة أو الموضوعيـة، والنقـد والتحليـل... الـخ»، إننـا أمـام تحقّـق مناهـج جديـدة، إنمـا نحـن أمـام أشـكال مختلفـة لاسـتخدامات الاسـتقراء والاسـتنباط.

وبالفعـل لا شـيء يثبـت حتـى الآن، أنَّ تعـدّد المناهـج المعمّـم فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، يـؤدّي حكمـاً إلـى الإلغـاء أو الاسـتبدال أو التخطّـي للاسـتقراء والاسـتنباط، وإنمـا يظهـر نسـبة عاليـة مـن التجديـد والتخفـي بأشـكال متعـدّدة.

إن التعـدّد المثـار فـي مجـال العلـوم، ناتـج فـي الأصـل مـن تغييـب الموضوعيـة العلميـة، وحضـور قـوة احتـكار الحقيقـة. وهـذا مـا وضـع الفكر الإنسـاني المعاصـر أمـام مشـكلة ليسـت فـي الأصـل حقيقـة مطلقـة، وأخـذ يعمـل آليـاً مـن خـلال توهمـه امتلاكهـا ووضـع سـلطة لامتلاكهـا، أي امتـلاك تعـدد المناهـج.

إن القفـزة العلميـة التـي تحققـت ابتـداءً مـن الثـورة الصناعيـة ومـا تلاهـا، لا يبـرر أبـداً، عمليـات تأصيـل مبـدأ تعـدد المناهـج، الـذي ينـزع نحـو امتـلاك الحقيقـة. إن تكسـير مبـدأ وجـود منهجيـن سـبيلاً للمعرفـة، وتأهيـل مبـدأ تعـدّد المناهـج، إنمـا يأتـي فـي سـياق إرسـاء قواعـد

أنتروبولوجيـة تقـوم عليهـا مبـادئ التعـارف والتـداول بيـن الأنـا والآخـر، تكريـس مبـدأ الانفصـام، بيـن الأنـا (الإنسـاني) والآخـر (الإنسـان الآخـر، غيـر الإنسـاني) تكريـس مبـدأ الثقافـي والتاريخـي والعلمـي، فـي مقابـل غيـر الثقافـي وغيـر التاريخـي وغيـر العلمـي (البدائـي).

# الفصل الثالث

# الموضوع والبحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية

# أ ـ بناء الموضوع وتحديده وتعيينه

## ١ ـ كيف يبنى الموضوع؟

ليس الموضوع شيئاً جاهزاً نجده أمامنا، بل إن الموضوع العلمي يبنى بجهد الفكر، إنه يبدأ من النظرية، الفكرة العامة. هذا الكلام الذي يتناوله علماء الاجتماع في حديثهم عن الموضوع، معتبرين أنه لا يغفل الواقع، بل يتعامل معه تعاملاً إيجابياً، يحتاج إلى نقاش ينطلق أولاً من القول أو السؤال: كيف برزت الفكرة؟ من أين جاءت؟ إذا كان علم الاجتماع يدرس الظواهر الاجتماعية، وكذلك العلوم الإنسانية، تدرس الظواهر الاجتماعية، كيف يضع الباحث في هذه العلوم فكرته لينطلق منها في بناء الموضوع، إنه ينظر إلى الواقع، وبالتالي فإن الواقع هو الذي يؤمن موضوع البحث. يعني ذلك أنه لا بدَّ من تلاقي الفكر (النظر) مع الواقع لإنتاج الفكرة التي ننطلق منها في تحديد موضوع البحث وبنائه. في هذه الحال، يصبح الواقع موضوعاً للبحث، من خلال ما حددناه للدراسة وفصلناه

نظرياً بشكل موقت عن محيطه وحولناه إلى مفردات نظرية، يكون التناسق قائماً بينها.

هنا ينشد الباحث بعيداً عن الواقع، ويحاول أن يجعل عمله أشد واقعية من الواقع الأساسي نفسه، فينحاز إلى موضوعه، (هنا تظهير لمعنى الموضوعية. انحياز الباحث إلى الموضوع، ووضعه موضع الواقعية الشديدة). ويبذل جهداً في إعادة تركيب الوقائع وفق أنظمة عقلانية متماسكة، تبيّن ترابطها وتوفّر القدرة على التحكم فيها عبر اكتشاف قوانينها.

عندما يدرس العالم أو الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ظاهرة ما، هل يحق له أن يقيم بناءً نظرياً يدرس على أساسه الظاهرة؟ أم أنَّ عليه أن ينظر في الظاهرة بما تحمله من عناصر، وما تظهره من وقائع، وما تخفيه فيدرسها؟

إننا هنا أمام إشكالية الموضوعية عينها في بناء الموضوع. فإذا كان الموضوع بالأساس في العلوم الإنسانية والاجتماعية، هو الإنسان، فإن ما ينتجه هذا الأخير من ظواهر ووقائع هو الذي يدرس في ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى جانب درس الإنسان كإنسان + كيف ندرس ظواهر ينتجها الإنسان؟ وكيف ندرس الإنسان؟.

القول بأنَّ المنطلقات الأساسية في بناء موضوع الدراسة هي

بجهد نظري، يعني موقفاً مسبقاً يفرضه الباحث، وهذا يعني انحيازاً موصوفاً، تجاه فكرة الباحث ونظريته. إنها التقليد الذي مارسته هذه العلوم للعلوم البحتة. نحن نعرف أنَّ الإنسان لا يمتاز بالثبات بل بالنمو والتغيّر في مستوياته كافة، وكذلك فإن ما ينتجه الإنسان من ظواهر اجتماعية، ووقائع هي في حال تغيّر وتبدّل، فإذاً كيف ندرسها في لحظة ما دون أن نلحظ مراحل التغير وما طرأ عليها أثناء دراستنا؟ كيف يمكن دراسة موقف ما في لحظة ما دون الانتباه إلى ما يتأثر به هذا الموقف في الزمان والمكان؟ كيف نقوم بإعادة تركيب المواقف والوقائع نظرياً، ولا ننتبه إلى أنَّ في لحظة إعادة التركيب تحدث تغيّرات؟

إنّ القول بقدرة الجهد التفكيري على إعادة تركيب الوقائع وفق أنظمة عقلانية متماسكة، تبيّن ترابطها وتوفّر القدرة على التحكّم فيها عبر اكتشاف قوانينها. هذه القوانين هي ما يُعيد المتغيّر المختلف من الوقائع إلى الثابت والمعلل؛ بمعنى تُعطي عللاً كافية، فيظهر لنا مدى رزوح العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت وطأة العلوم البحتة، ومدى تدخّل الرياضيات في هذه العلوم على غرار العلوم البحتة.

إنه من السهل إعطاء علل كافية لإثبات الروابط التي نقرر

وجودها، أو نحكم بين الظواهر، وهنا لا يعود مهماً ما إذا كانت الروابط ضرورية أو محتملة، بل المهم هو أن تعطى علة كافية لضرورتها أو لاحتمالها. يغدو هذا التعليل في العلوم الحديثة بمثابة الروابط، والنظم التي تجمع الروابط. وكلما أسندت هذه النظم إلى قواعد بسيطة ذات علة كافية، اكتسبت صفة التناسق والتكامل والبديهة. وكلما اكتسبت مثل هذه الصفات، أصبحت قادرة ليس على تفسير ذاتها بل على تفسير غيرها من النظم، أو بكلام أدق على إدخال ما يبدو مبعثراً من الأشياء في نظم محسوبة، وبالتالي موضوعية...

هكذا وبكل بساطة يطلقون أبحاثهم، من فرضيات، وليس من وقائع، من أحكام معللة، وليس من عناصر ومعطيات تتشكل منها الظاهرة. (سنتحدث لاحقاً في موضوع الفرضية).

في تعابير إضافية، إن موضوع البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية هو المجتمعي الذي يتألف من الـ«نحن» والـ«هم» والـ«أنتم»، من مجموع الناس الذين يمارسون الثقافي والاجتماعي والسياسي والتربوي والديني... الخ، ويقيمون العلاقات والروابط، ويتفاعلون فيما بينهم، ويُظهرون المشاعر والأفكار والأفعال. وهي جميعاً تعكس طبيعة الجماعة من حيث كونها جماعة في ذاتها، ولا

تعكس طبيعة أفرادها فقط، فهذه الوقائع موجودة على هذه الشاكلة لأنَّ الجماعة موجودة على هذه الشاكلة أيضاً[1].

هكذا الجماعة تنتج وقائع وظواهر، يلعب الفكر الإنساني دوراً مركزياً في إنتاجها، لكن هذا الإنتاج متعلق بالجماعة، وخصوصيته متعلقة بخصوصيتها. هذا ما يمثّل موضوع البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية. إن تحديد الموضوع وبناءه، ينطلق من النظر إلى الوقائع، هكذا، فإن الفكر والنظرية المعطاة مكانة كبيرة في البحوث العلمية، لا بد وأن يكون للوقائع دور في بلورتها لدى الباحث، لما لهذه الوقائع من تأثير في عمليات التطور والتغيّر والتبدّل داخل المجتمع، وهذا ما ينبغي أن يهتم به الباحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية.

إن المعطيات التي تثير الانتباه، وتدفع إلى مزيد من الاهتمام، بغية معرفة أكثر حول الظاهرة التي تقرر دراستها، هي التي تطلق الفكرة وتبدأ بتوليدها، إضافة إلى ما لدى الباحث من تراكم معرفي وثقافي، وما يحصل عليه من معلومات من خلال المصادر والمراجع.

إن القول بأنَّ الباحث لديه فكرة عن «الكلّ المجتمعي، وحبكة الفهم فيها (من الكل المجتمعي إلى الأفراد)، وعن طريقها يتفحص

---

(١) Marcel Mauss, Essais de Sociologie, Minuit, Paris, 1968, P. 8.

عالم الاجتماع محسوس الحياة اليومية فيختار منها معطيات محسوسة دون غيرها، ويدمج بينها ويجرّدها وينظرها في تركيب يعبر عن طابعها النموذجي. ويصل في غاية الأمر إلى موضوعه»[1]، يحتاج إلى تدقيق أكثر، ذلك أنَّ حبكة الفهم لدى الباحث ليست كافية للقول باختيار الموضوع. إن الوقائع التي تلفت انتباه الباحث هي التي تثير حبكة الفهم، إلّا إذا كان المقصود أن ينطلق الباحث من فكرة مسبقة، مقرراً البحث في أمر ما وينزل إلى الميدان يبحث عن المعطيات اللازمة لذلك. حينئذ نكون أمام نوع مختلف من الأبحاث.

الأبحاث التي يمكن القول بأنها واقعية، هي التي تنطلق مما يلفت الانتباه وليس مما يتقرر مسبقاً.

إن النقاش هنا ينطلق من كون الموضوع هو الإنسان، هو المجتمعي.

مثلما آثرنا القول، أنَّ الموضوع لا يُقدّم نفسه جاهزاً للدراسة، وأنَّ الباحث هو الذي يبني موضوعه، كذلك، فإن أفكار الباحث لا ينبغي أن تقدم الموضوع، إلّا إذا كنا أمام وضعية بحثية تتطلب

(١) إبراهيم، عبد الله، علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، المركز الثقافي العربي، م. س. ص ٥٩.

ذلـك، (شـركة، مؤسسـة، رسـمية، وغيـر رسـمية، محليـة أو دولية...الـخ) عندهـا، فـإن الباحـث يعمـل وفقـاً لمـا يحتـاج إليـه رب العمـل، أمـا الباحـث الفعلـي، المسـتقل، العالـم، فـإن موضـوع بحثـه ينبعـث مـن الوقائـع التـي تحـدث داخـل المجتمعـي، وتسـاعده حبكـة الفهـم التـي يتحـدث عنهـا د. عبـد اللـه إبراهيـم فـي بنـاء موضوعـه.

إنَّ موضـوع البحـث ليـس مجـرد معطـى أو فكـرة، بـل ينبغـي البحـث للتوصـل إلـى موضـوع البحـث. إنَّ مـا ينبغـي فعلـه هـو بنـاء الموضـوع مـن خـلال تجميـع المعطيـات اللازمـة وتلاقحهـا مـع الفكـرة وتظهيرهـا، لتعييـن الموضوع.

## ٢ ـ الموضوعية والذاتية في اختيار الموضوع

تثـار مسـألة الموضوعيّـة والذاتيّـة فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة منـذ بدايـات هـذه العلـوم، وكانـت ولا تـزال موضوعـاً لخلافـات شـديدة، ووجهـات نظـر متعـددة، وقـد ارتبطـت المناهـج العلميـة لهـذه العلـوم، مثلمـا المناهـج العلميـة للعلـوم البحتـة، بإشـكالية الموضوعيـة والذاتيـة.

الموضـوع هـو الموجـود المـدرك بوسـاطة الإحسـاس، والخاضـع للـدرس والتجربـة.

الذات وينسب الذاتي إليها، وهي بمعنى الجوهر والهوية، والشخصية، ويُعبّر عنها وعما بها من شعور وتفكير.

تُعبّر الموضوعية عن إدراك الأشياء مثلما هي عليه، دون انحياز أو تدخّل للأهواء والأفكار بمعنى تجاوز الذات.

هذه الإشكالية التي طُرحت في العلوم البحتة هل يمكن النظر إليها من المنظار نفسه في العلوم الإنسانية والاجتماعية؟

منذ أن انطلقت العلوم الإنسانية والاجتماعية في الغرب، جرى المزج بين مناهج هذه العلوم ومناهج العلوم البحتة، وبالتالي جرى التعامل مع الظواهر الاجتماعية، مثلما يتمّ التعامل مع الظواهر الطبيعية، ولم يتنبه كثير من الباحثين والعلماء عندنا إلى أنَّ هذا الخلط الغربي ناتج من رؤية معرفية أرادت التصادم مع الرؤية الكنسية، خصوصاً في مسألة الوعي الإنساني، فكانت الضرورة ملحّة للتعامل مع الظاهرة الإنسانية مثلما يجري التعامل مع الظاهرة الطبيعية؛ كذلك لم يتنبه هؤلاء إلى أنَّ ثمة فروقاً بين الظاهرتين وهي فروق جوهرية، تتمثل أولاً في أنَّ الإنسان كائن ذو قصد، لديه عقل وأفكار ومشاعر ودوافع، وهذا ما يحدد سلوكه وتصرفاته، حيث تلعب الدوافع الناتجة عن الفكر والضمير، والإحساس، والذكريات والتأمل والطموح والتطلعات، دوراً مركزياً في سلوكه وفي حدوث الوقائع الاجتماعية وظهور الظواهر، فيما الكائنات

الأخـرى لا تمتلـك هـذه الدوافـع، وبالتالـي فـإن مـا ينتـج مـن ظواهـر طبيعيـة لهـا سـمات مختلفـة عـن سـمات الظواهـر الإنسـانية، وهـذا مـا يحتـم الاختـلاف فـي دراسـة كل مـن الظاهرتيـن، والاختـلاف فـي مناهـج الدراسـة وأيضـاً فـي طرائـق التحليـل والتفسـير والشـرح.

مثلمـا قلنـا سـابقاً، المجتمعـي يتضمّـن نتـاج الاجتماعييـن، الـ«نحـن» والـ«هـم» والـ«أنتـم»، الأفـراد والأسـر، والمؤسسـات أو مجمـوع النـاس الذين يمارسـون الثقافـي والاجتماعـي، والسياسـي، والتربـوي، والدينـي... الـخ. وإن موضـوع الدراسـة الإنسـانية والاجتماعيـة مرتبـط بمـا يفعلـه هـؤلاء، ومـا تؤدّيـه ذواتهـم فـي الحيـاة اليوميـة؛ إن موضـوع الدراسـة هـو الواقعـة المجتمعيـة.

وعلـى هـذا الأسـاس يكـون المجتمعـي هـو الموضـوع فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، وهو يحمـل الذاتـي؛ ذاتانيات الفاعليـن الاجتماعيين، والباحثيـن والعلمـاء. وهـذه الـذوات تتأثّـر وتؤثّـر، وفـي عمليـات التأثّـر هـذه ومـن خلالهـا تـدور الحيـاة اليوميـة، ويصبـح لزامـاً، فـرض الأوضـاع والأدوار الاجتماعيـة للأفـراد والجماعـات.

هـل نسـتطيع الآن أن ندّعـي الموضوعيـة فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة؟ وهـل نسـتطيع أن نوافـق أنصـار الاتجـاه الموضوعـي علـى تصوراتهـم؟ حـول النظريـة الأساسـية المتعلقـة بالموضـوع، بأنـه الشـيء الخارجـي الـذي تقـع حواسـنا عليـه.

أم أننا ينبغي أن نذهب إلى ما يقوله أصحاب الاتجاه الذاتي، أو الذاتانية، (Subjectivisme)، وأنصاره، بأنَّ الموضوع هو ما تؤلفه التجربة الحية والخبرة الذاتية. وبالتالي فإن الموضوع هو ما بداخله وليس خارجه.

إن المعطيات التي تشكّل الظواهر الاجتماعية داخل المجتمع، تحمل الظاهر وغير الظاهر، وبالتالي فهي نتاج فعل الفاعلين الاجتماعيين وذواتهم، في ظاهرها وباطنها. ومهما يكن من أمر فإن الموضوع سواء تعلَّق بما هو خارجي أو بما هو غير خارجي، فهو متعلق بذوات الفاعلين الاجتماعيين، وعندما يبدأ الباحث عمليات البحث، وتجميع المعطيات، كذلك الأمر، فإن ما هو خارجي أو غير خارجي، سيكون لذات الباحث حضور فيه.

هناك خصوصية إنسانية للموضوع في العلوم الإنسانية والاجتماعية وبالتالي للظاهرة الاجتماعية، خصوصية إنسانية تختلف عن الخصوصية المتعلقة بالظواهر في العلوم الطبيعية، وهذا ما يستدعي الاختلاف الحتمي في دراسة كل من النوعين من الظواهر كما أشرنا سابقاً.

إن هذا الاختلاف يستدعي البحث في اختلاف المناهج والأساليب والطرائق البحثية، أو إدخال تعديلات جذرية تتلاءم

والظواهر الاجتماعية، وبذلك نقدم أجوبة إضافية حول علمية علم الاجتماع والعلوم الإنسانية.

لقد بات لدينا فهم حول الموضوعية والذاتية، كيف يمكن على هذا الأساس اختيار موضوع البحث؟

هل ستلعب الموضوعية دوراً في ذلك؟

أم أنَّ الذاتية هي ما سيساعد على اختيار الموضوع؟

هنا، النظرة إلى الموضوع مرتبطة بالوقائع التي تقدّم نفسها لنا وتثير فضولنا واهتمامنا، لتدفعنا نحو الاختيار، وبالتالي يتقدّم الفضول الذاتي على الموضوع، فيما تتقدم الوقائع لتثير الفضول الذاتي، وهذا ما يعني أنَّ اختيار الموضوع بموضوعية بعيداً عن تدخل الذاتي، هو ضرب من ضروب الخيال، إذ إن الباحث الذي يختار موضوع بحثه، يدفعه الفضول الذاتي لهذا الاختيار، بعدما ضغطت المؤثرات والوقائع والمعطيات على هذا الفضول وأثارته. فتدخل الذات في عملية الاختيار والقبول للموضوع واقعة لا محالة.

إن كلامنا هذا لا يعني بحال من الأحوال الانتماء إلى البنيوية (Structuralisme) التي حاول أصحابها التوفيق بين الاتجاهين «الموضوعانية، والذاتانية». ففي كتابه «أشياء مقُولة» «choses dites» قال بيار بورديو «عالم الاجتماع»: «بشكل عام يتحصل

التجاذب داخل علوم الأنتروبولوجيا، والتاريخ، وعلم الاجتماع، بين وجهتي نظر يستحيل للوهلة الأولى الجمع بينهما وبين نظريتين تقعان، للوهلة الأولى، على طرفي نقيض: الموضوعانية والذاتانية...»[١].

وقدّم نزعة توفيقية بين النظريتين، كانت هذه النزعة أكثر وضوحاً في كتابه الآخر «إجابات» (Réponses) من أجل أمنيات انعكاسية (١٩٩٢)، قال فيه: «... يوجد تطابق وتناغم وانسجام بين البنى المجتمعية والبنى الذهنية، بين انقسامات العالم المجتمعي الموضوعية وبين المبادئ التي يمارسها الفاعلون في نظرتهم»[٢].

وكذلك يفعل كلود ليفي ستراوس في كتابه الشهير «الأنتروبولوجيا البنيوية».

إن ما نذهب إليه هنا هو نزع الاستئثار بالحقيقة من قبل كل من النظريتين، والنظر بواقعية إلى المسائل والأمور، بعيداً عن مبدأ التكاذب الذي تخادع من خلاله المدارس في العلوم الإنسانية والاجتماعية. إن الواقع الذي يقدم المعطيات، ينتج من خلال الفاعلين وذواتهم، وهنا تشارك بين الواقعي والذاتي، ينتج الموضوع، ويؤدي إلى تحديده واختياره.

(١) Pierre bourdieu, Choses dites, Minuit, 1987, P. 49.

(٢) Pierre bourdieu Rèponses, SEUIL, Paris, 1992, P. 18.

هنا كسر للشائع، ونظرة إلى البحث العلمي بواقعية، تنطلق من فهم العلاقة بين الواقع والذات، وإنتاج المعطيات التي تتيح إنتاج أو جعل الباحث قادراً على تحديد موضوعه وبنائه. وهنا أيضاً ربط للواقع بهوية أبناء الواقع أو الذين ينتجون هذا الواقع بتفاصيله. هنا تبدأ عمليات التحوّل في أساليب البحث ومراحله، ولا تعود محكومة بضرورات الموضوعية التي ينادي بها كثير من العلماء والباحثين.

ثم إن كلامنا هذا، وإن رُبط الواقع بالذين ينتجونه وبهويتهم الثقافية والاجتماعية والسياسية... الخ، إلّا أنه لا يغفل عن مبدأ وحدة الجنس البشري، والقيم الإنسانية المشتركة والوجود الإنساني بأصله. إن الفعل الاجتماعي داخل المجتمعي ينتمي إلى الثقافي والديني والسياسي... الخ، لكنه لا يحدث انفصاماً لمجموعة من الناس عن مبدأ وحدة الجنس البشري وأصل وجوده وقيمه. إننا نحرص على تأكيد هذا الربط والوحدوية البشرية في ظلّ تنوع في الهوية الاجتماعية. بمعنى أنَّ الإنسان يأخذ مشروعيته الإنسانية من خلال هويته الإنسانية الجامعة وليس من خلال الهوية الاجتماعية والثقافية... الخ.

# ب ـ الفرضية في البحث العلمي

معنى الفرضية: الفرض في اللغة عبارة عن التقدير والقطع والبيان، والفرض قطع الشيء بقطع الحكم، وفرض الخياط الثوب قطعه والفرض لغة الوجوب.

والفرض الذهني هو الذي لا يطابق الواقع ولا يعتدّ به أصلاً[1]. وفرَضتُ الشيء أفرِضهُ فَرَضاً وفرضته للتكثير: أوجبته، وفي القرآن الكريم «وفرضناها» فمن يقرأ بالتخفيف فمعناه ألزمناكم العمل بما فرض فيها، ومن قرأ بالتشديد فعلى وجهين: أحدهما على معنى التكثير إنا فرضنا فيها فروضاً، وعلى معنى بيّنا وفصّلنا ما فيها من الحلال والحرام والحدود،... وأصل الفرض القطع، والفرض والواجب سيان،... وقيل الفرض ها هنا بمعنى

(١) الحسيني، أيوب بن موسى (أبو البقاء) - الكليات، معجم في المصطلحات والفروق م. س ص ٥٧٩.

التقدير[1]. والفرض فكرة يؤخذ بها في البرهنة على قضية أو حلّ مسألة.

والفرض مصدر بمعنى المفعول، وتقال على كلّ فكرة أو موضوع أو قضية شرطية، بحاجة إلى تحقّق نظري أو ميداني أو برهان.

ذهب البعض من الباحثين إلى أنَّ أصل الكلمة في الإنكليزية Hypothesis، وأنها مكونة من مقطعين Hypo ومعناه: دون الشيء أو «شيء أقل من»، الصحيح أنَّ كلمة Hypo في العادة عند الإنكليز لا تأتي وحدها بل هي مكمّلة أو أنها جزء مكمّل للكلام بمعنى «دون الشيء» أو «أقلّ من». مثلاً إذا قلت Hypoglycemia يعني معدلاً منخفضاً وهكذا، أما Hypothesis فهي كلمة واحدة وتعني الفرضية أي الفرض من قبل الأطروحة، أو ما دون الأطروحة. أما thesis وحدها فهي تعني فكرة، اقتراحاً، فرضية، وجواباً افتراضياً، مبدئياً، مقترحاً موقتاً، أو الأطروحة.

تمثّل الفرضية في البحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية، الصورة الاجتماعية التي يقدمها الباحث أو القانون

---

(١) أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بيروت ٢٠٠٣، باب حرف الفاء، مسألة الجزء الحادي عشر.

العام الذي يقدّمه عن الظاهرة، وفيه يحدد العلاقة التي يراها قائمة بين المتغيّرات في الظاهرة، وعن طريق هذا الافتراض يحدد الباحث الوجهة التي يأخذها البحث.

كيف يحصل الباحث على فرضيته؟ ومن أين يأتي بها؟

لنبدأ بالسؤال الثاني: يأتي الباحث بفرضيته من الظاهرة التي يعاين؛ فمن خلال المشاهدة والاستقراء، يضع مقدّمات ونتائج يقصدها قصداً (الفروض). وضع هذه الفروض هو نوع من التقرير أو من الاستدلال المنطقي في صورة تجريبية، يقوم على جدلية حسابية معقدة تسمى حساب الاحتمالات. هذا الاستدلال هو في حقيقته استنباط، يتدرج من العام إلى ما هو أقل إلى الوقائع، ويلعب دوره في صوغ الفرضيات. وبهذا، فإن استنباط الفروض هو عملية لاحقة للمشاهدة والاستقراء من وجهتين: الأولى، لاحق بالنسبة إلى الحدس الحسي، إذ لا بد من معرفة العلاقة التي يراها الباحث بين الظواهر في المحسوس. والثانية أنَّ الاستنباط يأتي بعد الترتيب المنطقي للاستقراء، أي للمعرفة التي تتجّه من الجزء إلى الكل.

عندما يتحدث أي باحث عن التجريب الذي ينطلق فيه من الفرضية، ينبغي أن يلتفت إلى أنَّ أساس ما انطلق منه هو الاسنتباط في صوغ الفرضية، ذلك لأنَّ الاستنباط هو العملية الطبيعية

للتفكير الذي ينتج المعرفة. هنا، واقعة الفرضية ترتبط بالاستدلال الاستقرائي، أو «الاستنباط الاستقرائي»، أي الانتقال من الجزئيات التي وقع الباحث عليها ووضعها في نظام عقلاني متناسق إلى «قانون عام» يحاول الباحث من خلاله أن يقرّب المعطى الواقعي من نموذج من الروابط يكون قابلاً للاحتساب، هذا التقريب هو نوع من الحوار الذي يجري بين النظام المفترض أو المفروض والواقع بما هو، والانتقال الذي يتم من الجزئيات إلى القانون العام أو النظام العقلاني المتناسق، هو استنباط يقوم به الباحث، مستنداً إلى الاستقراء بصورة أساسية؛ إنها عملية توليد وبناء وتكوين لفرض ما.

هكذا يبدأ الباحث عملية ابتكار عالم ممكن، أو ابتكار جزء من عالم ممكن، بغية مواجهته من خلال التجريب في العالم الخارجي، إنها مقابلة الوقائع المحسوسة، بالوقائع المفترضة، مقابلة النظام المفترض بالعالم الواقعي. إنه حوار بين المخيّلة والواقع، يؤدّي إلى الابتكار، هذا الابتكار هو الفرضية.

علمياً، الفرضيّة هي ما يتخيله الباحث حلاً لمعضلة ما. فهو عندما يقابل الواقعي بغير الواقعي، التخيلي بالواقعي، يخلق ويولد في ذهنه منظومة فكريّة يحاول أن يحيلها إلى واقع، يعتبرها الواقع بعينه. هكذا تجدنا مرة أخرى أمام سؤال يتمحور حول الموضوعية، كيف نفهمها؟ وكيف صاغها الغرب؟ وماذا أراد منها؟ إن أياً من

الإجابات عن هذه الأسئلة قد يوضح وجهاً وقد يغفل عن أوجه لحقيقة الموضوعية ومعناها.

إجرائياً، يصور الباحث العالم تصوّرات ذهنية أو نظرية، عن طبيعة العلاقات بين المتغيرات، هذه التصوّرات هي ما يمكن أن يعبّر عنه بالفروض، فالفرض عبارة عن علاقة نظرية بين متغيّرين. إن تحديد المتغيرات الرئيسة، ومن ثم تحديد العلاقات بينها في شكل فروض، تتم عادة بمقتضيات إطار نظري(١).

قد يعدّ الباحث فروضاً رئيسية ثم فروضاً بديلة، وفي كثير من الأحيان يقبل الباحث بالفرض البديل بعد فشل الفرض الرئيسي، الفروض البديلة عادة يأتي بها الباحث من إشارات في البحوث السابقة أو من التفسيرات النظرية التي تم تطويرها.

## صلاحية الفرضية في البحث في العلوم الاجتماعية والإنساني

ما عرفناه عن الفرضية أنها الصورة الاحتمالية التي يقدمها الباحث، أو أنها القانون العام الذي يقدمه عن الظاهرة، وأنَّ وضعها هو نوع من الاستدلال بصورة تجريبية، وهو وضع نظام عقلاني متناسق يحاول الباحث من خلاله أن يقرب المعطى الواقعي من

(١) التير د. مصطفى عمر، مساهمات في أسس البحث الاجتماعي، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٩، ص ٣٢.

نمـوذج مـن الروابـط يكـون قابـلاً للاحتسـاب. فهـل تصلـح الفرضيـة كمـا هـي للاسـتخدام فـي البحـث فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة؟ الجـواب عـن هـذا السـؤال يأتـي مـن جـواب عـن سـؤال آخـر، مـن أيـن يبـدأ الباحـث الـذي يعتمـد الفرضيـة، فـي بحثـه؟ إنـه يبـدأ مـن الفـرض وليـس مـن الواقع، أي إن الباحـث ينطلـق مـن الصياغـة النظريـة التـي وضعهـا، ليبحـث فـي مـا إذا كانـت مقبولـة أم لا، يذهـب فـي بحثـه إلـى البرهنـة، وهـذا مـا يعكـس حالـة الفهـم لـدى الباحـث، ولا يعكـس حركـة الفهـم لديـه، فمـا هـو هـذا البحـث؟ إنـه ليـس بحثـاً فـي واقعـة أو ظاهـرة، إنـه بحـث فـي وجهـة نظـر، فـي رؤيـة وحكـم وفـروض مقصودة،هـذا هـو الجـواب، إن الفرضيـة في هذه الحـال لا تصلـح فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة التـي تـدرس الظواهـر والوقائـع، إضافـة إلـى ذلـك، صـوغ الفرضيـة يحتـاج إلـى عمليـة تنظيـم الوقائـع المبعثـرة بنظـام متكامـل، أي إن الباحـث يفتـرض جمـود الظاهـرة فـي هـذه الحـال، أو بـكلام أدق، يعمـد الباحـث إلـى افتـراض أنـه يسـتطيع تجميـد الظاهـرة فـي لحظـة معينـة ولملمـة وقائعهـا المبعثـرة ووضعهـا فـي قالـب أو نظـام دقيـق ومتناسـق، وفـي وضـع كهـذا، فـإن الخطـأ الجسـيم الـذي يكـون قـد وقـع فيـه الباحـث، هـو عـدم وعيـه للحركيـة الدائمـة التـي تتميـز بهـا الظاهـرة ووقائعهـا. عندمـا يخطـو الباحـث هـذه الخطـوة، ويضع

فرضيته، يستدعي هذا الأمر التجربة. هو يضعها استدلالياً، من خلال المشاهدة، وينتقل لدراستها تجريبياً.

إن ما يحدث هنا هو خلط بين البحث في المعطى الواقعي والبحث في الإطار النظري، هذه المسألة يمكن لها أن تكون صحيحة في العلوم الطبيعية، التي تتميّز وقائعها بنسبة عالية من الثبات، كذلك فإن حركية هذه الوقائع بطيئة جداً لدرجة أنها تكاد تكون ثابتة. أما في العلوم الإنسانية والاجتماعية، فإن الأمر مختلف، وهذه الثنائية بين المعطى الواقعي، والإطار النظري، يتيح فهمها إمكانية الاستنباط والاستدلال والانطلاق في البحث على أساس دراسة حركية الوقائع وليس الحكم عليها.

السؤال الآخر، ما الذي يطاله البحث؟ حين ننطلق به؟

لا بد من القول بأنَّ البحث يطال الوقائع وليس إطاراً جامداً يتلقاها، وهذا الأمر يستدعي حواراً بين التساؤلات التي انبثقت من الإشكالية وبين الوقائع، حواراً داخل حبكة الفهم ومن خلالها، يؤمن الاستيضاح والتوضيح للكثير من الأمور، فما حاجة الباحث إلى الفرضية إذاً؟

إنها الضرورة التي انطلق منها علم الاجتماع، وانطلقت منها العلوم الإنسانية، إنها الضرورة التي انطلق منها هذا النظام الفكري أو النظام العلمي الموضوعي، والذي كانت انطلاقته

وكذلـك حركتـه، لاتـزالان نوعـاً مـن التقليـد والمحـاكاة لأسـاليب العلـوم البحتـة، إنهـا الضـرورة التـي حكمـت المواجهـة بيـن العلـم الإنسـاني والوعـي الإنسـاني، والتـي أوجـدت العلاقـة الثنائيـة، (باحـث وموضـوع)، ويتطلـب ذلـك إلغـاء الوعـي الإنسـاني، لأنَّ هـذا الوعـي كان ولا يـزال يعتبـر مـن ترسـبات الفكـر الدينـي.

لقـد جعلـت هـذه الضـرورة الوجـود الإنسـاني جـزءاً مـن الوجـود الطبيعـي العـام ليصبح الإنسـان نفسـه موضوعـاً للعلـم. ولكـي يـدرس العلم هـذا الإنسـان، وفـق إطـار معيـن، ينبغـي أن يحـدث انفصـام بيـن الوعـي وغيـر الوعـي. ارتكـز هـذا الأمـر علـى نظريـة تقـول بأنَّ الإنسـاني لا ينكشـف للإنسـان بـل ينكشـف للعلـم، وبقـدر مـا يمثـل الإنسـان عقلانيـة العلـم، يكتشـف الكامـن وراء الوعـي، أي مـا يمثـل فعـلاً الحقيقـة، الحقيقـة التـي تنتـزع مـن وراء الوعـي، هـذا الانتـزاع يقـوم بـه أنـاس مختصـون. السـؤال هنـا مـن هـم هـؤلاء المختصـون، هـل هـم علمـاء أم أنهـم منجمـون؟... إنهـا عمليـة اكتشـاف للحقيقـة المغايـرة للإنسـاني. إنّ ذلـك ينطبـق علـى ميـدان العلـوم البحتـة، فلمـاذا يطبـق فـي ميـدان العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة؟

إذا كان سـرّ الإنسـاني لا يكمـن فـي الوعـي مثلمـا يقـول ليفـي سـتراوس، بـل فـي الدمـاغ كمعطـى فيزيولوجـي، وظيفـي، فمـن أيـن جـاء سـتراوس بهـذه المعرفـة؟ هـل أتـى بهـا مـن هـذا المعطـى الفيزيولوجـي؟

وإذا كان هـذا المعطـى متشـابهاً وظيفيـاً بيـن كل النـاس، لمـاذا لـم يعـرف كل النـاس مـا عرفـه سـتراوس؟

يقـول أصحـاب التمسّـك بالفرضيـة فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعية، بالانتقـال مـن الإشـكالية إلـى الفرضيـة، هـذا الانتقـال يمثّـل انتقـالاً مـن المفاهيـم النظريـة إلـى المفاهيـم الإجرائيـة، نلفـت انتباههـم هنـا إلـى أنَّ الإشـكالية نتجـت مـن إشـكال فـي الفهـم، فكانـت رؤيـة الباحـث لمـا فهمـه، وإبـرازه لمـا لـم يفهـم أو لمـا أشـكل عليـه فهمـه، إنهـا حبكـة نظريـة، تحمـل مفاهيـم نظريـة. نعـم؛ الفرضيـة ناجمـة عـن عمليـة اسـتدلالية، إنهـا تصريـح يقدّمـه الباحـث ويحـدد فيـه مسـبقاً العلاقـة التـي يراهـا قائمـة بين الظواهـر فـي المحسـوس، إنّهـا كذلـك اسـتدلال نظـري، كيـف يكـون بذلـك الانتقـال مـن الإشـكالية إلـى الفرضيـة انتقـالاً مـن النظـري إلـى الإجرائـي؟ إنـه بـلا شـك انتقـال مـن النظـري المحتـاج إلـى تفسـير وتوضيـح وتحليـل، إلـى النظـري المحتـاج إلـى برهنـة. إنهـا عمليـة عكسـية. الأول يُعنـى بالظواهـر فـي الميـدان الإنسـاني والثانـي يُعنـى بالظواهـر فـي الميـدان الطبيعـي، فلمـاذا الخلـط إذاً؟

لنعـد إلـى صياغـة الفـروض. مـرة أخـرى، يعـدّ الباحـث فروضـاً رئيسـة ثـم فروضـاً بديلـة، وقـد يقابـل كلّ فـرض رئيسـي بفـرض بديـل

أو أكثـر؛ وعـادة يقبـل الباحـث الفـرض البديـل بعـد أن يفشـل فـي قبـول الفـرض الأصلـي.

هـذا مـا سـبق أن قلنـاه وأشـرنا إليـه، ووجدنـا أيضـاً أنَّ الباحـث، يعـد الفـروض البديلـة مـن إشـارات وجدهـا فـي البحـوث السـابقة أو مـن التفسـيرات النظريـة التـي تـمّ تطويرهـا، بهـذا يريـد البحـث أن يبرهـن، يدحـض أو ينقـض أو يؤيـد مـا سـبق أن جـرى البحـث بـه وبرهنتـه، (لأنـه اكتشـف بعـد تحليـل بياناتـه التـي جمعهـا أنهـا لا تؤيـد الفـرض الرئيسـي الـذي وضعـه، فآثـر وقبِـل الفـرض البديـل)، فـي هـذه الحـال فمـا الـذي يجـري؟ إن مـا يجـري هـو تكريـس لمواقـف مسـبقة مضمـرة، تحركهـا الفكرويـات والمرجعيـات، وتغلـف بشـكليات التلفيـق العلمـي وذرائـع التأكيـد أو الرفـض المعقـدة. إنـه إقفـال للبـاب أمـام عمليـات الإبـداع والإنتـاج العلمـي الجديـد، إنـه فـرض الأمـر علـى الباحثيـن وطـلاب البحـث العلمـي، وسـوقهم فـي اتجاهـات محـددة فكريـاً وعمليـاً، إذ يضطـر الباحـث للاستسـلام العلمـي، وهـذا انقضـاض علـى الوعـي والقـدرات والإمكانـات المعرفيـة والفكريـة وسـجن لهـا فـي إطـار الوظيفـة الفيزيولوجيـة للدمـاغ.

إن الباحـث لا يحتـاج فـي عدتـه إلـى أكثـر مـن الإشـكالية الواضحـة، وحسـن طـرح الأسـئلة، والتسـاؤلات الناجمـة عنهـا، ويكـون لحقـل البحـث الإجابـة.

في خلاصة القول، تمثّل الفرضية حُكماً مسبقاً، إسقاطاً أي جواباً مسبقاً، احتمالاً مسبقاً، نظاماً عاماً... الخ. إنّها نتيجة كانت جيدة يوماً في العلم، وأصبحت بالية في التاريخ، إنّها لا تصلح في العلوم الإنسانية والاجتماعية. (وهذه وجهة نظر).

# ج- الإشكالية في البحث العلمي

الإشكالية أو المسألية: مساءلة - تمشكُّل Problématique، Problematic، وهي من المسألة Probleme.

تدل المسألة على قضية نظرية قائمة أمامنا، يتعيّن حلّها بطرائق الاستدلال والحسابات المحددة: رياضية، فيزيائية... الخ. وهي معضلة يصعب حلها. وتثير من حولها الجدل والنقاش. وهي قضية، وصعوبة، منها تشتق المسألية أو الإشكالية. والمساءلة والتمشكل، أو الإشكال وهو صورة الشيء المخصوصة والمتوهَّمة، هو الالتباس الذي يلحق بالشيء أو الموضوع أو الظاهرة. وهو عملية صوغ المسأليات (الإشكاليات) في نسق مفهومي متماسك علمياً أو فلسفياً، ويعني التمشكل التفمهم، والاشتباه في أمر ما.

«إشكال» مصدر «أشكل»، أي التبس، «أشكل إشكالاً»، «وأشكل» الشيء اختلط فيه، واختلط الفهم فيه وعليه، و«الإشكال» مصدر يعني الالتباس والغموض، «وإشكالي» صفة تعني معضلاً وملتبساً. والإشكالية لا تخرج عن هذه المعاني.

يخلط بعض الباحثين بين «الإشكالية» و«المشكلة»، «المشكلة» هي شعور بالصعوبات، وإحساس بها، هي عقبة لا بدّ من تخطيها وتجاوزها للوصول إلى هدف ما، وقد تكون اصطداماً بواقع لا نريده، بمعنى أننا نهدف إلى شيء أو نريد شيئاً ونجد خلافه، وهي في كلّ الأحوال تعني الأمر الصعب كثير الالتباس، المحتاج إلى حلّ، الجواب أو الحل الذي يعطى للمشكلة يستوجب أن يكون مقنعاً، وكثيراً ما نجد صعوبة في إيجاد حلّ علمي لها.

فيما «الإشكالية» تدلّ على جملة من المسائل التي يقدّمها علمٌ في سياق فكرويّ معيّن. إنها قضية عامة تثير نتائجها الشكوك، ويمكن إيجاد حل علمي لها.

اشتقت «الإشكالية» في العلوم الإنسانية والاجتماعية، لتوحي بمقارنة نظرية يتبناها الباحث في دراسته، ويمكن لها أن تكون منفتحة على قدر ما تتبدل وتتغير معطيات المعرفة، ومقومات العلم[1].

من خلال هذه المقاربة يطرح الباحث جملة من الأسئلة والتساؤلات، والتصوّرات.

ويمكن القول بأنَّ الإشكالية هي كيفية مساءلة الظاهرة المدروسة.

---

(١) أنظر: خليل، خليل أحمد، مفاتيح العلوم الإنسانية، ص ٣٨٨. م. س.

هـي معضلـة تحمـل الالتبـاس والغمـوض والتوهـم. وتسـتدعي المسـاءلة. هنـا معنـى الإشـكالية. إنّهـا التبـاس يسـتدعي المسـاءلة، أي يسـتدعي البحـث عـن المعرفـة، إنهـا إثـارة القلـق لـدى الإنسـان، وإثـارة الحيـرة والتوتـر، وهـي التـي تدفعـه للبحـث. إنهـا علامـة اسـتفهام وتعجـب معـاً أو دليـل علـى اشـتغال الفهـم والتفكـر.

يترابـط واقـع تحديـد إشـكالية مـا، مـع تعييـن موضـوع البحـث وتحديـده؛ فهـي إشـكالية الموضـوع الـذي نبحـث فيـه وعنـه وبـه، وبذلـك فـإن اختيـار الإشـكالية وتحديدهـا، مرتبـط بالعوامـل والمؤشـرات والأبعـاد والمتغيـرات والمؤشـرات التـي يعتمدهـا الباحـث، والتـي تشـكّل بدورهـا المرتكـزات الأسـاس فـي تعييـن منهـج البحـث والمحطـات والخطـوات المنهجيـة المنـوي اتباعهـا، وتحديـد تقنيـات البحـث وأدواتـه.

## ـ التعرف إلى الإشكالية

إن صـوغ إشـكالية مـا، يتطلّـب وجهـة نظـر خاصـة فـي النظـر إلـى الموضـوع، ومعنـى ذلـك أنَّ التعـرّف إلـى الإشـكالية يحتـاج إلـى رؤيـة ومعرفـة، وبالتالـي فـإنّ أوّل مشـكلة تواجهنـا هنـا هـي المعرفـة الخاصـة، التـي تكـون لـدى الباحـث، كيـف يقـرأ؟ وكيـف يفهـم؟ وكيـف يحلـل ويفسّـر؟ اصطلاحيـاً، الإشـكالية هـي وجهـة النظـر والتسـاؤلات التـي

يطرحها الباحث العلمي، حول ظاهرة ما، وهي قابلة لإيجاد أجوبة لها. هذه الأجوبة تأتي بالتدرّج، وتكون جيّدة على قدر ما تكون الإشكالية والتساؤلات جيدة. وعندما لا تكون جيدة وغير جديرة وفضفاضة، وغير متحكّم فيها، تأتي الأجوبة على شاكلتها.

ينبغي أن يساعد الجواب الذي نحصل عليه (أو الأجوبة) على فهم الظاهرة أو جوانبها التي نبحث فيها أو عنها، ويساعد أيضاً على تفسيرها وتأويلها، أو أن يكون نقطة تدل على أننا عاجزون عن فهمها وتفسيرها.

ماذا يعني هذا الكلام؟ إنّه يعني أنّ على الباحث أن يتعرف إلى إشكالية بحثه من خلال فهمه للإشكالية وكشفه لوجودها بوساطة ما تجمع لديه من معطيات ومعلومات ناجمة عن الاستطلاعات والقراءات الاستكشافية.

هذا ما يميز الممارسة العلمية من الممارسة غير العلمية في البحث، وهذا ما يجعل ممارسة العلم يعي خاصية معرفية تسمح بالكشف عن وجه أو أكثر من وجوه الحقيقة أو الحقائق العلمية.

إنّ فهم الإشكالية وما تعْنيه، يضعنا أمام إمكانية كشفها والإجابة عنها بأفضل السبل، وهذا يعتمد على وعي الباحث ومعرفته، وحدود إمكانياته في إطار اشتغاله داخل حقل العلم، مثال على ذلك:

تختلف الإشكالية وطريقة تعيينها، باختلاف حقل العلم، فإذا كنا داخل حقل علم النفس مثلاً، ينطلق النظر إلى الموضوع من الجزء إلى الكل. تتمُّ متابعة فردها لمعرفة الجماعة، وبذلك فإن الإشكالية تكون موضوعة أو مبنية على أساس النظر إلى الأجزاء حتى يمكن تشكيل حدود الفهم حول الكل.

فيما يختلف الأمر داخل حقول العلوم الإنسانية الاجتماعية الأخرى، إذ ينظر إلى المشكلة أو الظاهرة وما يحدث في داخلها، أو كيف تتحرك وتتبدل وتتغير، وهذا يعني النظر من الكلّ إلى الجزء، وعليه، فإن الإشكالية في هذه الحقول العلمية، توضع بالنظر إلى الظاهرة من الكل إلى الجزء.

ثم إنّ الإشكالية ليست واحدة في حقل العلم نفسه، بمعنى أنّ كلّ ظاهرة أو كلّ موضوع له إشكالية أو أكثر، باعتبار أن ليس باحث واحد هو الذي يمكن أن يبحث به، بل إن الموضوع الواحد أو الظاهرة الواحدة، يمكن أن تدرس من قبل أكثر من باحث وفي أوقات مختلفة. وكلّ باحث له طريقته في التفكير، والفهم والميول، وكلّ مدرسة فكرية ينتمي إليها الباحثون لها وجهة نظرها وطريقتها في رؤية الأمور، وكلّ موضوع له عدة جوانب، وهذا يعني الاختلاف في البحث وطرائق المعالجة.

## ـ معنى الإشكالية

غالباً ما يواجه الباحث في العلوم الإنسانية، مشكلة معنى الإشكالية. فيذهب مذاهب مختلفة في تعيين ذلك، ولهذا نجد كثيراً من الباحثين يقولون بأنَّ الإشكالية هي سؤال أو مجموعة أسئلة.

يأتي ذلك الالتباس والخلط في فهم الإشكالية من عدة أمور:

أولاً: يحصل خلط بين الإشكالية والمشكلة. فإذا كان الاعتبار أننا أمام مشكلة بحاجة إلى حلّ، فإن ذلك يجعلنا أمام سؤال عن كيفية حلّ المشكلة.

ثانياً: يحصل خلط بين الإشكالية والموضوع، إذ يظن البعض أنه بمجرد اكتشاف الموضوع فإنه حصل على الإشكالية، مثلما قد يظن أنّه اكتشف موضوعه لأنّه وجد أمامه حدثاً ما أو قرأ عن أمرٍ ما.

عندما لا يعمل الباحث على بناء موضوع بحثه، فإنّه لن يصل إلى الإشكالية الجديرة بالبحث. وعندما يبني بحثه، عليه أن يعمل لبناء إشكالية البحث.

وعندما يُقدّم للباحث أو الطالب موضوع للبحث، فهو لن يستطيع بناء الإشكالية اللازمة والجديرة بالبحث، ولهذا كلّه، يذهب البعض إلى السؤال.

ثالثاً: عدم وعي معنى الإشكالية يؤدّي إلى عدم وعي القدرة على ممارسة الإشكالية وبنائها. فنكون أمام السؤال.

إن وعـي هـذه النقـاط معرفيـاً، يسـمح بالكشـف عـن المعنـى فـي الإشـكالية وعـن معنـى الإشـكالية. فمـا هـو هـذا المعنـى؟ إنـه فـي الحقيقـة يمثـل نقطـة التقـاء بيـن الفهـم والغمـوض، إنـه الإشـكال فـي الفهـم، والالتبـاس الـذي يحيـط بفهـم الظاهـرة.

وهكـذا، عندمـا ينظـر الباحـث إلـى ظاهـرة مـا، فإنـه يجـد نفسـه أمام جملـة مـن المعطيـات التـي تكشـف لـه وجهـاً مـن أوجـه الظاهـرة أو عـدة أوجـه منهـا، فيمـا تغيـب عنـه أوجـه أخـرى.

وإذا كان هنـاك باحـث آخـر، أو عـدة باحثيـن ينظـرون إلـى الظاهـرة نفسـها، فإننـا سـنكون أمـام عـدة طرائـق للفهـم والكشـف، وعـدم الفهـم والغمـوض، ولهـذا نجدنـا أمـام إشـكالية البحـث. إنهـا إشـكالية لأنهـا تعنـي أنَّ هنـاك أكثـر مـن غمـوض وأكثـر مـن التبـاس لـدى عـدد مـن الباحثيـن، إنّهـا مـا استشـكل فهمـه والتبـس.

إنّ كلّ رؤيـة لـكلّ باحـث تملـك أو ينبغـي أن تملـك مبـررات وجودها، وجدارتهـا، رغـم أنهـا يمكـن أن تتعـارض وتختلـف مـع غيرهـا فـي معظـم الأحيان.

عمومـاً، فـإن الإشـكالية تعنـي جملـة مـن المسـائل التـي تقـدم فـي سـياق فكـروي معيـن، بعـد المشـاهدة والملاحظـة للوقائـع واسـتقرائها

عملياً أو تجريبياً، وبعد القراءة الاستكشافية حولها، وكذلك فحص وقراءة النظريات والإشكاليات السابقة المتعلقة بموضوع البحث ونواحيه.

## ـ صياغة الإشكالية

يرتكز اختيار الباحث للإشكالية على اعتبار أنها أهم مراحل تعميم البحث العلمي، وتشكل مرحلة مفصلية في المسار المنهجي للبحث. إنها تلخص وتقدم الإطار المنهجي والتوجيهي للحل، وتعطي الموضوع الحدود اللازمة، وتناقش جوانبه الرئيسة.

يتم بناء الإشكالية وصياغتها أساساً على ضوء ما يتم الاطلاع عليه في مجال الموضوع المعني في البحث، مثلما ورد سابقاً؛ من خلال:

١ـ تجميع معلومات بوساطة تقنيات مثل الملاحظة والمقابلة، وتلك عمليات استكشافية أولية.

٢ـ يستفيد الباحث من المعلومات والمعطيات التي يحصل عليها من المراجع والأبحاث والكتابات المتعلقة بالبحث أو التي تقارب موضوعه بطريقة ما.

٣ـ يستفيد الباحث من الإشكاليات التي وضعت سابقاً إلى جانب وجهات النظر حول الموضوع.

٤ـ يعمـل الباحـث علـى تطويـر وتوضيـح المعلومـات المسـتقاة مـن الأبحـاث والمراجـع.

٥ـ يذهـب البعـض إلـى أنَّ الحـدس العلمـي يلعـب دوراً يختصـر الخطـوات الشـكلية أحيانـاً، لـدى العالـم المـزود بقـدرة عاليـة علـى التجريـد.

فـي المحصلـة، إن مـا عرفنـاه عـن الإشـكالية حتـى الآن، يفيـد أنهـا تعكـس حالـة الالتبـاس فـي الفهـم لـدى الباحـث، وبالتالـي، فإنهـا تدفـع باتجـاه تحريـك عمليـات التفكيـر للبحـث عـن المعرفـة والفهـم، إنهـا وبـكل بسـاطة تعكـس حركـة الفهـم.

ما الذي نعنيه بهذا القول، إنها تعكس حركة الفهم؟

إنّهـا تدفـع نحـو البحـث عـن فهـم حركـة العلاقـات والتطـورات التـي تُحـدث تبـدّلاً وتغيّـراً داخـل الظاهـرة، وكيـف تؤثـر وتتأثـر، وكذلـك بيـن أبعـاد المفاهيـم ومكوّناتهـا وعناصرهـا، وهـذا يعنـي أننـا أمـام مقاربـة الموضـوع مـن خـلال محاولـة الفهـم بيـن مـا هـو محسـوس ومـا هـو غيـر محسـوس، مـا هـو متحـرك ومـا هـو محمـول، ومـا يربـط بينهمـا هـو الحكـم، هـذا الحكـم هـو بحاجـة إلـى إثبـات، أي إلـى تعليـل، هـذا التعليـل لا يحصـل إلّا بالاسـتناد إلـى قاعـدة علميـة أو منهجيـة علميـة. هنـا لا يصبـح هـذا الحكـم معلـلاً إلا مـن خـلال العمليـات البحثيـة، وبالتالـي يبقـى إشـكالاً إلـى أن يصبـح حكمـاً.

في هذا الإطار نفهم بعمق وبصورة أوضح حقيقة الجهد العلمي وأساليب البحث العلمي، بمعنى ما أن يبدأ الباحث بالجهد لبناء موضوعه، فإنه يعمل على مقاربة هذا الموضوع بعد أن يحصل على المعلومات اللازمة، هذه المعلومات أوجدت إشكالاً في الفهم لديه، يمتاز هذا الإشكال بفهم أوجه وعدم فهم أوجه أخرى، تدفعه إلى مقاربة الموضوع على أساس هذا الإشكال.

هكذا فإن المعلومات التي أوجدت الإشكال تدخل في أساس تشكُّل الظاهرة أو صيرورتها وتطوّرها، ومنها أو معها يتشكل نظام يسيّر الظاهرة، هذا النظام قابل للتعديل ويمكن تعديله فيما بعد.

إن ما يظهر لنا وما نعلمه عن الظاهرة مما انكشف أمامنا لا يمثّل الظاهرة ولا يفسّرها، بل إن هناك ما لم ينكشف ولم يظهر وكذلك هناك ما ظهر ولم نفهمه، لذلك كان البحث، وهذا ما يدعو إلى صياغة إشكالية البحث، إنّه الالتباس الذي أدى بنا إلى التساؤل، إنّه يقيّم العلاقة بين ما هو معلوم من الظاهرة وما هو غير معلوم.

المعطيات التي جمعناها تعكس صورة عن وضعية للظاهرة، لكنها لا تعكس كلّ صورة الظاهرة وتظهر جوانب من العلاقات والحراك الاجتماعي والأدوار والروابط. ذلك لا يُقدّم الظاهرة بوضعيتها الكاملة. الفكرة التي نتعرّض لها هنا، هي أنَّ الباحث يبدأ بتكوين فكرة أولية حول الظاهرة، من خلال المعطيات المحسوسة

التـي توصـل إليهـا، لكنـه لـن يتمكـن مـن الإحاطـة بالظاهـرة إلّا بعـد أن يحصـل علـى إجابـات لمـا هـو غامـض وغيـر مكشـوف وغيـر مفهـوم بالنسـبة إليـه، وهـذا مـا يجعلـه بحاجـة إلـى صياغـة إشـكاليته التـي تحـدّد لـه نقاطـاً ملتبسـة وغامضـة أشـكل فهمهـا. وهـذا مـا يناقـض أقـوال بعضهـم بـأنَّ المعطيـات المبعثـرة تقـدّم نفسـها أمـراً بديهيـاً، إنّهـا لا تقـدم نفسـها، إنـه يبحـث عنهـا، مـا التقطـه أولاً، كان بفعـل ملاحظتـه، وانتباهـه، لأنَّ هـذه المعطيـات عينهـا قـد لا تكـون محـطّ اهتمـام آخريـن غيـره. فـي هـذه الحـال يعنـي أنَّ إرادة الباحـث ودقـة ملاحظتـه هـي التـي التقطـت المعطيـات الأوليـة، وهـي التـي جعلتـه يسـعى إلـى التقـاط المزيـد منهـا ويقـرر البحـث فيهـا وعمـا التبـس عليـه وأشـكل، وأن يضـع الأسـئلة والتسـاؤلات حـول مـا يريـد أن يعـرف ويعلـم، لتكـون لديـه صـورة مـا عـن الظاهـرة.

ليـس الأمـر هنـا ظاهريـاً، إنـه فعلـي ومعبّـر، ثـم إنّ للغـة دوراً قويـاً فـي هـذا الفعـل، إذ إن قـول الباحـث لـم أفهـم أو أريـد أن أفهـم أو لمـاذا أو كيـف... الـخ تـؤدّي بـه إلـى ممارسـة فعـل البحـث، والعمـل علـى إنجـازه. وهـذا تعبيـر عـن الوعـي الـذي ينبغـي أن يتميّـز بـه الباحـث، وتعبيـر عـن قدرتـه علـى الفعـل والبحـث.

تشـترك المعطيـات التـي قـام الباحـث بجمعهـا ومـا حصـل عليـه مـن خـلال المراجـع والأبحـاث فـي إيجـاد تسـاؤلات لديـه وفـي تمثـل

دلالات متعـددة، إنهـا تملـك قـوة الإيحـاء وخصوبـة إنتـاج التسـاؤلات، حينئـذ يصـار إلـى تبلـور فكـرة وصياغـة إشـكالية، يذهـب الباحـث فـي بحثـه للإجابـة عنهـا وعـن تسـاؤلاتها وكشـف مـا هـو غامـض فيهـا.

بعـض الباحثيـن يذهـب إلـى أنَّ الإشـكالية غيـر كافيـة فـي البحـث العلمـي فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، مـن أجـل البحـث، بـل إن هنـاك أسـئلة يجـب الإجابـة عنهـا، تتعلـق بالمكونـات والعناصـر والأبعـاد والعلاقـة فيمـا بينهـا داخـل العلـوم، قبـل النـزول إلـى الحقـل لتحديـد كيـف يـدرس الموضـوع.

بمعنـى أن نوجـد نظامـاً متكامـلاً مـن العلاقـات بيـن المتغيـرات والمعطيـات مسـتنداً إلـى قواعـد بسـيطة ذات علـة كافيـة، تكسـبه صفـة التناسـق والتكامـل والبديهيـة، ليكـون قـادراً ليـس فقـط علـى تفسـير ذاتـه، بـل علـى تفسـير غيـره مـن النظـم، وبـكلام أدق إدخـال مـا يبـدو مبعثـراً مـن المعطيـات والمتغيـرات فـي نظـم محسـوبة، تحتـاج إلـى التعليـل والإثبـات، أو الإنـكار؛ إنهـا ضـرورات الموضوعيـة، وهنـا يكمـن معنـى الفرضيـة.

يصعـب التسـليم بذلـك، عندمـا نكـون أمـام ظاهـرة إنسـانية، تحمـل الكثيـر مـن المعطيـات والعلاقـات والروابـط والحـراك. إن الشـيء المهـم هنـا، هـو أنَّ مـا لـم يتمكّـن الباحـث مـن فهمـه وكشـفه فـي العمليـات الاستكشـافية يدفعـه إلـى البحـث، هـذا الأمـر هـو فـي مقابـل

أشياء ومعطيات انكشفت لكنها مثل تلك التي بقيت غامضة عرضة للتبدّل والتغير والصيرورة، بمعنى أنها قد تتحول في لحظة ما إلى حال من الغموض، لماذا على الباحث أن يجمّدها داخل نظام معين؟ ليبحث كيف يبرهن أن ينكر؟ وهو قد أشكل عليه الفهم نتيجة للتبدّل والتغير، وهل يستطيع أن يفترض هذا النظام لو لم يلتبس عليه الأمر، إنه لا يستطيع تجاوز ذلك، وإنّ هذا الالتباس يعينه في تحديد ماذا ينبغي أن يبحث. إذ إن لجوء الباحث لوضع هذا النظام الافتراضي، الذي يعطي ما يمكن أن نسميه إجابات مسبقة، هو تجاوز للبحث العلمي، إذ ليس على الباحث أن يجيب عن أسئلة البحث قبل البحث، وليس المطلوب من الباحث امتلاك إجابة قبل البحث، بل المطلوب منه النزول إلى الحقل والبحث، هنا ينتقل الباحث من «الالتباس في الفهم» إلى حال «حركة الفهم».

- أهم خصائص إشكالية البحث:

١- قابلية الإنجاز: إذ لا معنى لوضع إشكالية مهما كانت أهميتها، وهي غير قابلة للإنجاز أو المعالجة، أو أنَّ الباحث لا يمتلك الآليات اللازمة، ولا يمتلك المقدرة على البحث والمعالجة. وقابلية الإنجاز تتطلب من الباحث تحديد نطاق بحثه قدر الإمكان.

٢- الأهمية: يرتبط هذا الأمر بأهمية الموضوع، فإذا لم يكن للموضوع المدروس أهمية معتبرة، يعني ذلك أنَّ هناك هدراً

للطاقـة والوقـت والإمكانـات، وكلمـا شـعر الباحـث بأهميـة بحثـه، كانـت حماسـته أكبـر، وكلمـا أحـسّ أنّ الأهميـة أقـل تراجعـت الدافعيـة لديـه.

- أسئلة تساعد على ضبط الإشكالية:

## أ ـ معيار القابلية

- هـل تـمّ تحديـد الإشـكالية علـى نحـو يسـمح بالتحقـق العلمـي منهـا؟
- هل تساهم الإشكالية في ضبط الموضوع؟
- هـل يمتلـك الباحـث الميـزة اللازمـة لإجـراء البحـث انطلاقـاً مـن وضـع الإشـكالية والعمـل علـى تحققهـا علميـاً؟
- هل لدى الباحث الاهتمام الكافي بالبحث؟
- هـل تتوافـر لـدى الباحـث الإمكانيـات اللازمـة والوقـت الكافـي لإنجـاز عملـه؟
- هـل تمّـت صياغـة الإشـكالية علـى نحـو يراعـي أخلاقيـات البحـث العلمي ؟

## ب ـ معيار الأهمية

- هـل يتوقـع أن يسـاهم تنـاول الإشـكالية فـي تحقيـق واحـد أو أكثـر مـن الأهـداف التاليـة؟:

١ـ تطوير المعرفة في إطار الاختصاص العلمي.

٢ـ تطوير نظرية ما في الاختصاص.

٣ـ تعميق مستوى الفهم لنظرية ما.

٤ـ تطوير المنهجية البحثية.

٥ـ تقييم ممارسات أو سياسات معينة.

٦ـ تصحيح مسار معرفي معين.[١]

في الختام وبالعودة إلى وضع موقع الإشكالية في إطار الزمان والمكان المحددين لموضوع البحث وموضوعيته، يجب الإقرار بأمرين:

١ـ تاريخياً، إن الإشكالية هي الوريث النظري والتطبيقي للفرضية، بعد قرنين من الزمان، بين نشوء النظريات الحديثة في علم النفس والاجتماع وبين ثورة المعلوماتية والرقم.

٢ـ مكانياً، إنّها تعبّر عن حركة التحرر الفكري الاجتماعي، إنّها تعبير عن حركة الوعي، وعن انفتاح الميدان المعرفي وانتقاله من المركز الغربي إلى فضاء العالم الإنساني.

---

(١) راجع: جابر عبد الحميد جابر وأحمد خيري كاظم، مناهج البحث في التربية وعلم النفس: دار النهضة العربية القاهرة، ١٩٨٩ ص ٤٢.

وراجع: جمال الخطيب، إعداد الرسائل الجامعية، دليل علمي لطلبة الدراسات العليا: دار الفكر، الأردن ٢٠٠٦م.

# الخاتمة

يمثل إنتاج المعرفة، الحال الأرقى والأكثر أهمية في حياة المجتمعات، بها ومن خلالها يحدث التطور والتعبير والابتكار والإبداع.

هذه المعرفة المنقسمة تلقائياً، قبلية وإنتاجية، تعبّر عن الإمكانات التي يمتلكها الإنسان في مقابل غيره من الموجودات. وإذا كانت المعرفة القبلية تكاد تكون واحدة لدى كلّ الناس، يعبّرون عنها بأفعال وردّات أفعال تبدأ من اللحظة الأولى للولادة، وتمكّن من التعبير عن الدهشة والتعجب، فإن هذه المعرفة تتيح الانطلاق نحو المعرفة بقسمها الثاني، المعرفة المنتجة، إنها تدفع نحو إنتاج المعرفة.

مجرّد الدهشة والتعجّب اللذين يحدثان لدى الإنسان تنطلق الأسئلة والتساؤلات، وتنطلق عمليات البحث والتنقيب والتمحيص والاستدلال والاستقراء والاستنباط بطرائق عادية وبطرائق علمية.

كان الإنسـان ولا يـزال باحثـاً، يكتشـف ويفهـم ويـدرك ويعـرف، ويراكـم تلـك المعرفـة. لقـد تمكّـن مـن خـلال المعرفـة مـن الانتقـال تدريجـاً خـلال مراحـل التاريـخ فـي عمليـات التطـور الحضـاري والفكـري والتكنولوجـي، إلـى أن وصـل إلـى مـا هـو عليـه اليـوم. تميـزت المعرفـة بكونها علميـة وغيـر علميـة، كلا المعرفتيـن مكنتـا المجتمـع الإنسـاني مـن التغيـر والتطـور. إلّا أنَّ المعرفـة العلميـة، لعبـت دوراً كبيـراً فـي سـلطنة الإنسـان داخـل الطبيعـة وعليهـا، وجعلتـه متحكمـاً فـي كثيـر منهـا.

احتاجـت هـذه المعرفـة لتمكّـن الإنسـان مـن ذلـك، إلى منهـج علمي، تعمـل وفقـه فـي ميـاديـن البحـث؛ فـإدراك الظواهـر الطبيعيـة والإنسـانية والحقائـق الرياضيـة وبراهينهـا، ممكـن بوسـاطة مناهـج واتجاهـات فـي التفكيـر والبحـث.

لقـد ذكرنـا فـي كتابنـا السـابق مركبـات التفكيـر ومناهـج البحـث العلمـي، «إن اسـتخدام المنهـج هـو الـذي يجعـل العلـم قـادراً علـى الإجـراء التنظيمـي وتحقيـق النظـام...»، وذكرنـا أنـه «مـع وجـود الإنسـان وجـد العلـم الإنسـاني، فقـد بـدأت لحظـة وجـوده أعمـال البحـث والتفكّـر والتفكيـر والتسـاؤل والتفلسـف والكشـف والتعـرف والتوصيـف والتوظيـف والتصنيـف، وأحـدث خـلال تاريخـه سلسـلة مـن التطـورات وأشـعل العديـد مـن الثـورات العلميـة التـي نقلـت البشـرية مـن حـال إلـى حـال».

لقد وضع منهج البحث أو وضعت مناهج البحث في الإطار العملي قبل أن تصاغ في الإطار النظري منذ أن بدأ الإنسان عمليات البحث والكشف والتعرّف... ولم تصنف المناهج ولم تعرف أنها مناهج بحث بالمعنى المعاصر، بل كان يعرف أنَّ لكل طريقته في البحث والمعرفة إلى أن عُرِّف المنطق من قبل أرسطو، وعُرِّف المنهج على يد راموس وزاربيلا في القرن السادس عشر، وشاع استخدامه في كتابات فرنسيس بيكون ورينيه ديكارت...

لقد كان لهذا المنهج أسس معرفية، جعلته قادراً على تسجيل التقدّم الكبير في حياة الإنسانية منذ القرن التاسع عشر، أي منذ الانتقال إلى مرحلة الحداثة وما بعدها وما بعد بعد الحداثة، والعولمة ومرحلة التفكيك والتذرير.

إن هذا المنهج مكّن البحث العلمي من عبور مراحله ومحطّاته بميزة تحمل في ذاتها مجمل القدرات الإنسانية، إنها مسألة حيوية في العلم، القدرات الإنسانية الباحثة من خلال المنهج العلمي، تطوّر العلم وتكشفت أوجهه، وثار العلم، إنه الوعي الإنساني المتحرّك بحركة العقل الإنساني.

# المراجع

## المراجع باللغة العربية


١ـ إبراهيم، عبدا لله: علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، بيروت، ٢٠٠٦م.

٢ـ أبو الفضل، جمال الدين محمّد بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، دار صادر، بيروت ٢٠٠٣م. (معجم).

٣ـ التير، د. مصطفى عمر، مساهمات في أسس البحث الاجتماعي، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٩م.

٤ـ الخطيب، جمال، إعداد الرسائل الجامعية، دليل علمي لطلبة الدراسات العليا ، دار الفكر، الأردن ٢٠٠٦م.

٥ـ الخولي، د. يمنى طريف، فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول، الحصاد، الآفاق المستقبلية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى، كانون الثاني ٢٠٠٠، ضمن سلسلة «عالم المعرفة» العدد رقم ٢٦٤.

٦ـ الفندي، د. محمّد ثابت، فلسفة الرياضة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩م.

٧ـ القريمي الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني، (أبو البقاء)

الكليـات، تحقيـق د. عدنـان درويـش ومحمّـد المصـري، منشـورات ذوي القربـى، إيـران، قـم، ١٠٩٤ هـ. (المعجـم).

٨- القرآن الكريم، سورة الحجرات.

٩- جابـر، عبـد الحميـد جابـر، وأحمـد خيـري كاظـم، مناهـج البحـث فـي التربيـة وعلـم النفـس، دار النهضـة العربيـة القاهـرة، ١٩٨٩م.

١٠- جمعـة، زكـي، مركبـات التفكيـر ومناهـج البحـث العلمـي، دار الفارابـي، بيـروت، ٢٠١٥م.

١١- خليـل، خليـل أحمـد، مفاتيـح العلـوم الإنسـانية، دارالطليعـة، بيـروت، ١٩٨٩م. (معجـم).

١٢- خواجـة، د. أحمـد، أوهـام المؤالفـة بيـن العلـوم والإيديولوجيـا، مجلـة الفكـر العربـي، العـدد ٥٥، كانـون الثانـي وشـباط ١٩٨٩م.

١٣- سـتراوس، كلـود ليفـي، مقـالات فـي الإناسـة، ترجمـة، د. حسـن قبيسـي، دار التنويـر، بيـروت، بـدون تاريـخ.

١٤- فضـل اللـه، د. مهـدي، مدخـل إلـى المنطـق (المنطـق التقليـدي)، بيـروت، دار الطليعـة، ١٩٨٥م.

١٥- محمّـد علـي محمّـد: علـم الاجتمـاع والمنهـج العلمـي، الإسـكندرية، دار المعرفـة الجامعيـة، ١٩٨٦م.

١٦- منيمنـة، د. جميـل، المنهـج المعاصـر، مجلـة الفكـر العربـي، العـدد ٥٥، السـنة العاشـرة، كانـون الثانـي وشـباط ١٩٨٩، معهـد الإنمـاء العربـي.

١٧- و. بـودون، وف. بوريكـو، المعجـم النقـدي لعلـم الاجتمـاع. ترجمـة د. سـليم حـداد، المؤسسـة الجامعيـة للدراسـات والنشـر والتوزيـع، مجـد، بيـروت الطبعـة الثانيـة، ٢٠٠٧م. (معجـم).

١٨- هيدغـر، مارتـن، مبـدأالعلـة، ترجمـة د. نظيـر جاهـل، المؤسسـة الجامعيـة للدراسـات والنشـر والتوزيـع، مجـد، الطبعـة الأولـى، بيـروت١٩٩١م.

١٩- ويمـر، روجـر، ودومينيـك جوزيـف، مدخـل إلـى مناهـج البحـث الإعلامـي، ترجمـة صالـح أبـو إصبـع، وفـاروق منصـور، المنظمـة العربيـة للترجمـة، البصـرة وبيـروت، حزيـران ٢٠١٣م.

## المراجع باللغة الأجنبية

1- Claude riviere, l'objet social, op.cite .

2- Hassan hamali, théologie et anthropologie, in renaissance du monde. Arabe, colloque, Genève, 1975.

3- Jean- Francois Lyotard, L'Enthosiasme, Editions. Galilee.

4- La guizaine litteraire, Mai 1966.

5- Lazarsfeld, Paul, Qu'est-ce que La Sociologie, Gallimard, Paris, 1970.

6- Marcel Mouss, Essais de Sociologie, Minuit. Paris, 1968.

7- Paul Feyerabend, contre la methode, Editions du seuil, 1979.

8- Pierre bourdieu, Choses dites, Minuit, 1987.

9- Pierre bourdieu, Reponses, Seuil. Paris, 1992 .

يحاول هذا الكتاب مناقشة أهمية المعرفة، والتفكير العلمي، ويذهب إلى نقاش موضوعة الموضوعية، وعلاقتها بالمعرفة العلمية، في محاولة لفهم كيفية اشتغال البحث العلمي، في العلوم الإنسانية والاجتماعية، استناداً إلى الفكر العلمي الحديث، المنطلق من مبدأ الضرورة التي احتاجت في مواجهتها (المواجهة بين الفكر العلمي الحديث والفكر الديني، منذ انطلاقة الثورة الفرنسية)، إلى إبعاد الوعي الإنساني، أي إيجاد انفصام إنساني، بين إنسان موضوع للعلم وإنسان يبحث فيه، جعل الإنسان الأول موضوع العلم، شيئاً جامداً. الإنسان الفرد والجماعة، حتى يتمكن الإنسان الآخر (مفهوم التميز) من درسه. الثاني جعله بلا وعي، وكان عليه أن ينطلق من واقع أنه يمتلك دماغاً فيزيولوجياً وظيفياً يتحرك من خلاله في البحث، إنه ضرب الإنساني بالإنساني، وتحويله إلى أشياء مخصوصة، لأناس مخصوصين، علماء منجمين، يفرطون في القطع والحكم باسم العلم الإنساني الاجتماعي الذي لم يمتلك مشروعيته العلمية حتى الآن.

**الدكتور زكي حسين جمعة، لبناني من مواليد ١٩٦٧، علي النهري – زحلة البقاع.**

- **حائز شهادة دكتوراه من الفئة الأولى في العلوم الاجتماعية.**
- **عمل مديراً للدراسات في المركز الإحصائي الاستشاري.**
- **عمل مستشاراً لوزير الشؤون الاجتماعية.**
- **أستاذ العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع السياسي ومنهجيات البحث العلمي في الجامعة اللبنانية.**
- **كاتب وباحث.**

**من أهم مؤلفاته:**

**بيروت بين الانفتاح والانغلاق، اتحاد الكتاب اللبنانيين، ٢٠٠٨ م.**

**تدافع العقول، دار الفارابي، بيروت ٢٠١٢ م.**

**مساهمات في التنشئة الاجتماعية، دار الفارابي، بيروت ٢٠١٣ م.**

**مركبات التفكير ومناهج البحث العلمي، دار الفارابي، بيروت ٢٠١٥ م.**

ISBN 978-614-432-497-4

9 786144 324974